الفصل الثاني
الشعر

الشعر في الجاهلية- الخصائص العامة للشعر الأندلسي

obeikandl.com

obeikandl.com

ظهرت خلال الفترة التي انقضت بين صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٣٨ وإعداد هذه الطبعة الثانية، دراسات قيمة مشرقة عن الشعر الأندلسي. فقد نشر غرسية غومس - حين كان أستاذًا بجامعة غرناطة - كتابه المسمى «قصائد عربية أندلسية Poemas Aràbigo-Andaluces»(*) فأعطانا صورة تشوق النفس عن نواحي الجمال الأدبي التي يضمها هذا الشعر. ثم أخرج للناس عام ١٩٤٠ كُتيِّبه المسمى «قصائد الأندلس ciadaluQasidas de An» ترجم فيه إلى شعر إسباني رصين أطرافًا من أشعار ابن زيدون وابن عمار والمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية. ثم نشر أبحاثًا متفرقة عن نواحٍ مختلفة من الأدب الأندلسي من بينها ترجمته البديعة «لرسالة» الشقندي في فضل الأندلس بعنوان:

Elogio del Espanol por el Secundi

وفي عام ١٩٤٠ أخرج الطبعة الثانية من كتابه «قصائد عربية أندلسية» منقحة معدلة. وبعد ذلك بعامين، أي في عام ١٩٤٢، نشر «كتاب رايات المبرزين وشارات المميزين» لابن سعيد المغربي مع ترجمة إسبانية كاملة وتعليقات إضافية بعنوان: .El Libro de las Banderas de los Campeones

وهذا الكتاب مجموع من أشعار أهل الأندلس، استعمله غرسية غومس كأساس لكتابه «القصائد»، ثم نشر نصه كاملاً بعد ذلك، وعندما انتخب عضوًا في «المجمع الملكي الإسباني للتاريخ» في سنة١٩٤٣، ألقى في حفل استقباله بحثًا ضافيًا عن ابن زَمْرَك، آخر شاعر فحل أطلعه الأندلس.

ومن الكتب الجليلة التي ظهرت في هذا الميدان مؤلف هنري بيريس أستاذ جامعة الجزائر المعروف: «الشعر الأندلسي الفصيح في القرن الحادي عشر،

(*) نقلنا هذا الكتاب إلى العربية ونشرناه بعنوان «الشعر الأندلسي» - القاهرة ١٩٥٢

openkandil.com

خصائصه العامة وقيمته التاريخية»:

Henri Pèrès: La poesie Andaluse en Arabe Classique au XI Siècle. Ses Aspects Gènèraux et sa Valeur Documentaire (Paris, 1937)

درس فيه حشدًا عظيمًا من أشعار الأندلسيين وبوبَّها بحسب موضوعاتها، وجعلها في متناول الباحثين.

وقد رأيت أن أعيد كتابة هذا الباب الثاني من كتابي؛ حتى أضمِّنه نتائج هذه الدراسات الجديدة، فحذفت معظم ما كنت أوردته في الطبعة الأولى من النصوص، واستبدلت بها أخرى أوردتها بترجمة غرسية غومس. وإنني لأنتهز هذه الفرصة لأعرب لصديقي وزميلي العزيز عن أصدق شكري على ما تفضل به من الإذن لي في الاقتباس من كتبه، وإن القراء ليشاركونني في إزجاء هذا الشعر.

ف٢ - الشعر في الجاهلية

اتخذ الشعراء في الأندلس الإسلامي قصائد العرب الجاهليين نماذج ينظمون على منوالها، كما حدث في غير الأندلس من بلاد الإسلام. وقد كانت محاكاة هذا الشعر الجاهلي ميسورة، أما الإتيان بأحسن منه في بابها فقد كان عسيرًا.

وكانت قصائد الجاهليين تُتناقل أول الأمر عن طريق الرواية الشفوية، وكان أول من دونها حماد الراوية في القرن الهجري الثاني، إذ دوَّن سبعًا من غرر الشعر الجاهلي سميت «المعلقات»، وأصحابها هم: امرؤ القيس، وزهير بن أبي سلمى، والنابغة الذبياني، وأعشى قيس، ولبيد بن أبي ربيعة، وعمرو بن كلثوم، وطرفة بن العبد. ويُجمع نقاد الأدب جميعًا على هذه المعلقات السبع، ويجعل بعضهم معلقتي الحارث بن حِلِّزة وعنترة مكان معلقتي النابغة والأعشى.

وقد وضع بعض كتاب العصور المتأخرة حكاية جعلوها أصلاً للفظ «معلقة» -

ومن هؤلاء السيوطي (٨٤٩/١٤٤٥ - ٩١١/١٥٠٥) - ذهبوا فيها إلى أن معنى اللفظ: «القصائد المعلقة»، وقالوا: إن تنافس الشعراء في إنشاد قصائدهم في سوق عكاظ هو الأصل في ظهور هذه المعلقات، فكان الناس إذا أقروا فضل قصيدة علقوها في عكاظ أو في الكعبة.

وليس لدينا عن منافسات الشعراء هذه إلا فكرة غير واضحة، وذهبوا كذلك إلى أن هذه القصائد إنما ظهرت في مكة (لا في عكاظ). وزعموا أنه كان على الشعراء - قبل الإسلام - أن يعرضوا ثمار قرائحهم على رجال قريش ليقضوا قضاءهم فيها، فكان أولئك القضاة إذا أعجبتهم قصيدة أذنوا لصاحبها في أن يعلقها في الكعبة تشريفًا له، كما كان الإغريق يتوجون رأس الشاعر السباق بإكليل من الغار[1]، وتضيف هذه الأسطورة أن لبيدًا - حينما اعتنق الإسلام - نزع معلقته من الكعبة ومزقها إربًا.

أما أبو زيد محمد بن علي الكرخي النحوي فقد اختار طائفة من عيون القصائد وجعلها سبع طبقات، أولها المعلقات، وسمي رابعتها «المذهبات». ثم اختلطت هاتان الطبقتان إحداهما بالأخرى، ومن هنا فقد قرر بصورة قاطعة أن «هذه المعلقات كانت مدونة بحروف من ذهب على قطعة من فاخر النسيج علقت على أستار الكعبة».

وقال محمد بن أبي الخطاب القرشي في كتابه المسمى بـ: «جمهرة أشعار العرب» في سياق كلامه عن أصحاب المعلقات: «والقول عندنا ما قال أبو عبيدة: امرؤ القيس ثم زهير والنابغة والأعشى ولبيد وعمرو وطرفة. وقال المفضل: هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب «السموط»، فمن قال: إن السبع لغيرهم

فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة»[*]، فأسقط المفضل من أصحاب المعلقات عنترة والحارث بن حلزة وأثبت الأعشى والنابغة.

وكانت المعلقات تسمى المذهبات، وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القباطي بماء الذهب وعلقت على الكعبة، فلذلك يقال: مذهبة فلان، إذا كانت أجود شعره؛ ذكر ذلك غير واحد من العلماء. وقيل بل «كان الملك إذا استجيدت قصيدة يقول: «علقوا لنا هذه»، لتكون في خزانته»[*].

بيد أن عدم ورود هذه الأخبار عند أوائل المؤرخين والشراح (كالأزرقي صاحب «تاريخ مكة» وابن هشام صاحب «سيرة النبي»، وقد سجل لنا فيها كل ما كان في الكعبة تسجيلاً دقيقًا)، وورودها أول مرة في إشارة لأحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس أبي جعفر من أهل مصر، المتوفى في منتصف القرن الرابع الهجري[*]، يذهب فيها إلى أن تلك الأخبار حكايات موضوعة لا أساس لها من الصحة، ثم ظهورها بعد ذلك في عصور متأخرة كعصري ابن خلدون (١٣٣٢/٧٣٢ - ٨٠٩/ ١٤٠٦) والسيوطي (١٤٤٥/٨٤٩ - ١٥٠٥/٩١١) - كل أولئك حجج دامغة تحدونا إلى رفضها.

هذا وقد أثبت بوكوك ockPoc ورايشكه Reiske، ودي ساسي Sylvester de ySac بطلانها ببرهان ظاهر الوجاهة: هو ندرة استعمال الكتابة بين العرب؛ حتى

(*) أبو زيد محمد بن الخطاب القرشي: كتاب «جمهرة أشعار العرب» ص٣٤ – ٣٥؛ الطبعة الأولى، بولاق١٣٠٨هـ.

(*) جلال الدين السيوطي: «كتاب المزهر في علوم اللغة وأنواعها»، القاهرة ١٢٨٣، ج٢، ص ٢٤٠

(*) انظر عنه «معجم الأدباء» لياقوت، ج٤، ص ٢٢٤-٢٣٠، طبعة فريد رفاعي.

على عهد الرسول. وإذا كان القرآن نفسه لم يدوَّن إلا على قطع من الجلد وسعف النخل والحجارة الملساء، فإنه لمن المستبعد أن تكون القصائد الوثنية قد دونت على نسيج فاخر بحروف من ذهب.

والحقيقة أن لفظ «معلقة» يعني معلقة فعلاً، ولكنه يعني كذلك «عقدًا». وقد استعمله الزمخشري بهذا المعنى عنوانًا لمجموع من مختاراته الشعرية؛ ويؤيد ذلك أن حمادًا الراوية جمع مختارًا من القصائد وجعله في كتاب سماه «الأسماط» أي «العقود»، مما يجعلنا نقطع بأن المعنى الحقيقي للفظ المعلقات هو العقود.

تصور قصائد الجاهليين حياة عصرهم بخيرها وشرها، وذلك أمر طبيعي. ولقد أخذ الشعراء بنصيب فيما وقع بين قبائلهم من خصومات وحروب لا آخر لها، تدور كلها حول الذود عن شرف القبيلة والانتصاف لها إذا مس اسمها ما يشين، أو قتل من أفرادها أحد.

وقد برز الشاعر عنترة في الحروب التي ثارت بين قبيلتي عبس وذبيان. أما امرؤ القيس الكندي فقد جَوَّب في آفاق جزيرة العرب كلها طالبًا أعداءه بثأر أبيه المقتول، وبلغ به الأمر أن قصد القسطنطينية راجيًا الحصول على العون من إمبراطورها، فمات في عودته منها عند أنقرة. وحلف الشَّنْفَرى ليقتلن مائة رجل من عبس ثأرًا لصهره. وقضى عمرو بن هند ملك الحيرة أن يدفن طرفة وخاله المُتَلَمِّس حيين عقابًا لهما على ما قالاه فيه. وسفك عمرو بن كلثوم دم هذا الملك في سورة غضب؛ لأن أم ابن هند أهانت أمه.

وفي مقابلة هذه الخصلة الرعناء، نجد العربي يمتاز بكرم ذهب مضرب الأمثال عن أهل الغرب. وقد جبل العربي على ذلك الندى بسبب ما يسود الصحراء من مخاوف. ومن مآثر ذلك الكرم العربي التي نضربها مثلاً ما ينسب إلى «مَرّار

الفَقْعَسِيّ» الذي يروي له أبو تمام في «الحماسة» أبياتًا يقول فيها:

آليتُ لا أخفى إذا الليلُ جَنَّني ... سنا النارِ عن سارٍ ولا متنوِّرِ
فيا موقدي ناري ارفعاها لعلها ... تضيءُ لسارٍ آخرَ الليلِ مُقْتِرِ
وماذا علينا أن يواجهَ نارَنا ... كريمُ المحيّا شاحبُ المُتَعَسِّرِ
إذا قال: بمن أنتم؟ ليعرفَ أهلَها ... رَفَعتُ له باسمي ولم أتنكر
فبتنا بخيرٍ من كرامةِ ضيفنا ... وبتنا نهيّئُ طُعمه غيرَ ميسرِ[٢]

ومنها ما يروى عن حاتم طَيِّئ، الذي طلق زوجته؛ لأنها كانت دائمة الخوف من أن يجر كرمه الخراب عليهما، ويقول ابن قتيبة في كتاب «الشعرِ والشعراء» أنه «حدث - بعد وفاة حاتم - أن رجلاً يعرف بأبي خيْبَرى مر بقبر حاتم، فنزل عنده وبات يناديه: يا أبا عدي، أقرِ أضيافك! فلما كان في السحر وثب أبو خيبري يصيح: وا راحلتاه! فقال له أصحابه: ما شأنك؟ فقال: خرج حاتم والله بالسيف؛ حتى عقر ناقتي وأنا أنظر إليه؛ فنظروا إلى راحلته فإذا هي لا تتبعث، فقالوا: قد والله قراك! فنحروها وظلوا يأكلون من لحمها، ثم أردفوه وانطلقوا. فبينما هم كذلك في مسيرهم طلع عليهم عدي بن حاتم ومعه جمل أسود قدّ قرنه ببعيره فقال: إن حاتمًا جاءني في المنام فذكر لي شتمك إياه وأنه قراك وأصحابك راحلتك، وقد قال في ذلك أبياتًا ورددها عليّ حتى حفظتها:

أبا خيبرى وأنت امرؤ ... حسود العشيرة لوامها
فماذا أردت إلى رمة ... بداوية صخبٌ هامها
تبغي أذاها وإعسارها ... وحولك عوف وأنعامها

وأمرني بدفع جمل مكانها إليك، فخذه، فأخذه(*).

وكان امرؤ القيس قبل توجهه إلى القسطنطينية قد استودع السموأل عارية: خمسة دروع فاخرة من الزرد؛ فلما مات امرؤ القيس أقبل أعداؤه يطلبون إلى السموأل أن يسلمهم الدروع، وهددوه أن يقتلوا ابنه إذا هو لم يسلمها، فأبى أن يفعل رغم إلحاح امرأته، مفضلاً فقد ابنه على أن يخون الأمانة.

وكان التغني بالشجاعة من أحب المواضيع إلى الشعراء والعرب عامة، وإليك مثالاً من شعر عنترة:

وحليلِ غانيةٍ تركتُ مُجَدَّلاً	تمكُو فريصتُه كشدق الأعلمِ
سبقت يداي له بعاجل طعنةٍ	ورشاشِ نافذةٍ كلونِ العَنْدَمِ
هلاّ سألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالكٍ	إن كنتِ جاهلةً بما لم تعلمي
إذ لا أزال على رِحالةِ سابحٍ	نَهْدٍ تَعَاوَرُهُ الكماةُ مُكَلَّمِ
طوراً يجرَّدُ للطعان وتارةً	يأوي إلى حَصَدِ القسيِّ عرمرمِ(٢)

ويقول غرسية غومس: «إن القصيدة الجاهلية كانت تتألف من ثلاثة أقسام: مدخل غزلي يسمى «النسيب»، ووصف رحلة الشاعر خلال الصحراء ويسمى «الرحيل»، ثم مدح الشخص الذي تقال فيه القصيدة، ويسمى «المديح».

وكان وصف الأسفار المحفوفة بالمخاطر من المواضيع المطروقة الشائعة في

(*) أخذ المؤلف كلامه عن هذا:

Renè Basset: La Poèsie Abrbe Antè-Islamique (Paris, 1880)p.23 sqq.

وانظر: «كتاب الشعر والشعراء» لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة. طبعة دي خويه، لايدن ١٩٠٤، ص ١٢٩-١٣٠.

قصائد الجاهليين؛ وكذلك وصف العواصف والخيل، والجمال، والغزلان، وبعض أنواع السلاح، وما إلى ذلك.

ولم يجعل الله الشعر في طبع محمد ﷺ، وإن كان قد وُهب بلاغة فياضة وأسلوبًا أدبيًا رائعًا. وفي القرآن آيات تغض من قدر الشعر والشعراء، كقوله (تعالى): ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ ؛ ولكن محمدًا أجاز قول الشعر واستمع إليه؛ لأنه رأى فيه وسيلة لتقويم اللسان وتعلم البيان. وجعل شعراء المسلمين يدفعون بشعرهم ما عسى أن يوجهه شعراء خصوم الإسلام إليه من النقد والهجاء.

ويقول ابن قتيبة - موجزًا - إنه بعد أن جاء الإسلام تغير الروح والعادات والحضارة والدين، واختلفت عما كان عليه الحال في الجاهلية؛ ومع هذا فقد احتفظ الشعر بنفس قواعده، وظل خاضعًا لقواعد لا يمكنه الفكاك منها ... فكان على الشاعر الذي ينظم قصيدة - اتباعًا للقواعد القديمة - أن يبدأ بذكر المنازل التي ظعن عنها أهلها، ثم يتحسر، ويرجو أصحابه الوقوف معه، بينما يمضي هو مع ذكريات من رحلوا عن هذه الديار إلى منازل أخرى ومياه أخرى، ثم يدخل بعد ذلك في قسم النسيب من قصيدته: فيشكو آلام الهوى. وهكذا يستلفت الاهتمام نحو شخصه، ثم يصف رحلاته المجهدة الفياضة بالمتاعب في ربوع الصحراء، ثم يتحدث عن نحول دابته من طول السرى، ويمتدحها، ويطنب في وصفها. ثم يختتم بمدح الأمير أو الحاكم الذي ينشده قصيدته؛ حتى يفوز منه بما يسمح به جوده[٤].

واستمر ذلك التقليد المطلق على رغم سخرية نفر من نقاد الأدب منه - ومن أولئك خلف الأحمر - مضوا يأخذون على شعراء بغداد والبصرة ودمشق انصرافهم عن ذكر محاسن الجمال بينما لم تغب عن أبصارهم مآذن المدائن التي ولدوا فيها، أو تغنيهم بذكر الآبار وعيون الماء وبين أيديهم الأنهار ومجاري المياه، أو سكوتهم

عن محاسن الرياض الخضراء يزينها الورد والنرجس والآس، لمجرد أن العرب لم يعرفوا هذه الأشياء.

وهذا هو الذي جعل ابن بسام يقول في شأن الأندلسيين: «... وقد مجّت الأسماع «يا دارَ مَيَّةَ بالعَلياءِ فالسَّنَدِ»، وملت الطباع «لخولةَ أطلالٌ ببرقةِ ثَهْمَدِ»، ومَجَّتْ «قِفَا نَبْكِ» في يد المتعلمين، ورجعت على ابن حُجْر بلائمة المتلكفين؛ فأما «أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى» فعلى آثار من ذهب العفا .. أما آن أن يُصَمَّ صداها، ويُسأم مداها؟ وكم من نكتة أغفلتها الخطباء، وربَّ مُتَرَدَّمٍ غادرته الشعراء، والإحسان غير محصور، وليس الفضل على زمن بمقصور، وعزيز على الفضل أن ينكر، تقدم به الزمان أو تأخر، ولحى الله قولهم: الفضل للمتقدم! فكم دفَن من إحسان، وأخمل من فلان. ولو اقتصر المتأخرون على كتب المتقدمين لضاع علم كثير، وذهب أدب غزير»[٥].

ثم إن الشعر - كما يقول ريبيرا - أصبح «وسيلة قوية من وسائل تمثيل الشعوب في كيان الأمة العربية، ومصدرًا من مصادر قوتها: استعمله العرب لشد عزائم الجنود في ميادين القتال، وفي بث الحمية في قلوب الجماهير بذكر الوقائع الحربية في أشعار كان القصاص يرددونها في الطرقات والميادين والشوارع. وكان ذلك يثير إعجاب الجمهور»[٦].

ف٣- الشعر العربي بعد الإسلام

على الرغم من التغيير الكامل الذي شمل حياة العرب بعد الإسلام، ظل الشعر العربي خاضعًا لقيود لم تتغير، وفي ذلك يقول غرسية غومس: «ولقد فقد الشعر علة وجوده الأولى عندما انتقل القلب النابض للإسلام من جزيرة العرب إلى دمشق القريبة من الصحراء، وبعد أن غادر الشعر العربي هذه الأخيرة إلى بغداد ليستقر وتهدأ روحه فيها، إذ طغت عليه العناصر الأسوية.

وتأكد ذلك عندما انتقلت الخلافة من أيدي الأمويين - ذؤابة الشرف البدوي القديم، الذين كان حب البداوة يعمر قلوبهم - إلى العباسيين الذين لبسوا ثياب المستبدين من عواهل الشرق القديم. هنالك احتبس في الحلوق ذلك الصوت الجهير العميق الذي كان يصدر عن قلب الطبيعة النابض، وحُرم الشاعر من اللذة التي كان يجدها في وصف الجمل وشياته، وتصوير شجيرات الخزامى والبهار والعرار النابتة بين كثبان الرمال، أو في تصوير الوقائع الدامية التي كانت تثور بين البدو بعضهم وبعض، ولم يعد يستطيع الحديث في حرية وانطلاق عما كان يعانيه في صحرائه من مشاق وجوع. ولم يعد الشاعر كذلك لسان القبيلة السياسي، المتحدث بمفاخرها، المهاجم لخصومها، المنادي بطلب ثارها، وإنما أصبح مدّاحًا مأجورًا أو هاجيًا مثيرًا للعداوات والأحقاد. ولم تعد حبيبته تلك البدوية الحرة البارعة الجمال، على الرغم مما كان يشوب حسنها من سذاجة وبداوة؛ لأنها حجبت عن الناس والنور خلف جدران الحريم لتعزف على عودها في عزلة عن الحياة، وعاشت في جو مثقل مظلم.

ثم إن الشاعر لم يعد في جو الصحراء الرحب الطلق تحت أشعة الشمس الصاحية، وإنما أصبح يتنقل في أزقة المدن بين المكتبات والقصور ومجالس الأنس والأدب واللهو؛ حيث يلتمس إعجاب فتية مترفين أفسدهم نعيم الحضارة، وكان بعضهم ينشد الناس شعره على هيأة شاذة تبعث على العجب، كهذا الشاعر الموصلي الذي حدثنا الشابشتي أنه «دخل على بعض الولاة وقد طيَّن وجهه بطين أحمر ولبس لبادًا أحمر وعمامة حمراء وأمسك عكازًا أحمر ولبس في رجليه خفَّين أحمرين»(*).

(*) «كتاب الديارت» للشابشتي، ص ٨٦ب.

وكان لا بد للشعر من أن يتطور في الظروف الجديدة، وثارت الخصومة بين القدامى والمحدثين، وفيما بين أواخر القرن الثامن وأوائل العاشر طرق شعراء من طبقة بشار بن بُرْد وأبي العتاهية وأبي نواس وابن المعتز ونفر كثير غيرهم موضوعات جديدة «ما مرت قط بخاطر جاهلي ولا مخضرم ولا إسلامي»(*).

وجاء بعدهم جيل جديد كابن بكر بن أحمد الصنوبري وأبي عبد الله بن الحسين بن أحمد بن الحجاج - أبدعوا وأغربوا في اختيار الموضوعات، فتحدثوا في شعرهم عن أزهار الرياض والبساتين وبرك الماء والأسماك والثلج والغراميات العسيرة أو المبتذلة ومجالس الشراب والجواري الغلاميات. وأغرب بعضهم في اختيار الموضوعات حتى قال بعضهم المراثي في القطط(*). وانصرفت همم الشعراء إلى البحث عن كل غريب مسرف في الغرابة، وطلبو كل ما هو متصنع ظاهر الابتكار، كقول أحد الخالديّين:

ومدامة صفراء في قارورة ... زرقاء تحملها يد بيضاء

فالراح شمس والحباب كواكب ... والكف قطب والإناء سماء(*)

وكان الشعراء يتنافسون في أن يحشدوا في أشعارهم أكبر قدر من المعاني. وعلى الرغم من أن هذا التطور مس روح الشعر بصفة خاصة دون ظاهره - فبقيت

(*) «العمدة» لابن رشيق، جـ٢، ص١٨٥.

(*) الإشارة هنا إلى ما فعله ابن علاف المتوفى ٩٣٠/٣١٨، وقد ذكر ذلك الدميري في «حياة الحيوان» جـ٢، ص٢٣١. انظر إشارة آدم ميتز إلى ذلك وتعليقه عليه، انظر الترجمة العربية لكتابه «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع»، ترجمة الدكتور عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، ١٩٤٠، جـ١، ص٤٢١- ٤٢٢.

(*) «يتيمة الدهر» الثعالبي، جـ١، ص٥١٩. والخالديان هما أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد، ابنا هاشم، انظر «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع»، جـ١، ص ٤٣٨.

الأبحر والأوزان القديمة على حالها لم تمس، وبقيت القوالب العامة المعقدة دون تغيير - إلا أن هذا التطور أسفر عن ظهور الخمريات الخالصة ومقطعات النسيب القصيرة أو قصائد التأملات وشعر الحكمة، وأخذت القصيدة تتحول إلى قطعة وصفية.

بيد أن المُحدَثين لم يوفقوا إلى إدراك النصر الكامل الذي سعوا إليه. إذ إن للقديم سلطانًا عظيمًا على نفوس العرب خاصة، ومن ثم كان للتراث الشعري القديم قيمة كبرى في تاريخ الآداب العربية، والفصيحة(*) منها بصورة خاصة، ذلك أنه «ديوان العرب» الذي تتبين به الأصول القديمة وتُعرف الأنساب، بل أوصاف الطرق والمجالات الغابرة، وما كان لها من خصائص جغرافية وما كان ينبت فيها من نبات.

وكان الناس جميعًا يحفظون هذا الشعر القديم، وكان النحويون ينظرون إليه في إجلال عميق بالغ، وينسجون حوله الحكايات يعارضون قصائده وأبياته في مهارة ظاهرة.

وفي أثناء القرن العاشر الميلادي ظهرت حركة قصدت إلى إحياء الشعر القديم وتجديده نستطيع أن نسميها «حركة القديم المحدث»Neoclasica (تزعمها أبو تمام والبحتري والمعري).

أما الذي وصل بهذه الحركة إلى أوجها فهو أعظم شاعر أطلعته العربية بعد الإسلام، وهو أبو الطيب المتنبي (٢٩٣/٩٠٥- ٣٥٥/٩٦٥). كانت تعمر نفس المتنبي روح متوثبة تفيض حمية، وربما حامت حول صدق إيمانه الشكوك، وكان فخورًا

(*) المراد بالفصيح هنا الشعر الذي صيغ في اللغة الفصحى، تمييزًا له من الشعر الدارج الذي صيغ في اللهجات الدارجة المستعملة، كالزجل.

بنفسه عظيم الاعتداد بها، ولهذا كان من العسير عليه أن يقسر نفسه على ما فرضته الظروف عليه من التكسب بالشعر، وتثقلت به صروف الأيام من ممدوح لممدوح، إذ لم يُقَدَّر له الاستغناء عنهم جملة. ومن هنا كان المتنبي جوَّاب آفاق لا يكل، عارفًا بفنون الشعر كلها قديمها وجديدها، ومن ثم أتيح لشعره أن يكون جُماعا لمذاهب الشعر العربي جميعًا، وأتيح له أن يملك نواصيها كلها في توفيق نادر وملكة طيِّعة.

وقد تناول المتنبي ألوان التجديد والإغراب التي أسرف المحدثون فيها واستعملها عن قدرة وتمكن، فسما بها إلى الأوج الذي كان لها فيما سبق. وشعره محمل بكهربائية عبقرية، حافل بالعواطف، والأحاسيس التي يشوب بعضها الإبهام، غنى بما يثير النفس ويحرك العواطف، كل ذلك في قالب جميل مؤنق مما جعل شعره سيفًا من سيوف الحق لا أداة من أدوات العبث.

ولم يعرف العرب قطُّ الشعر القصصي أو شعر الملاحم، ولكن المتنبي في تغنيه بوقائع سيف الدولة مع الروم - وهي صليبيات سبقت زمانها بوقت طويل - استطاع أن يحمِّل شعره رنينًا ووقعًا قريبين من رنين الملاحم وأوقاعها، وإن كنا لا نظفر فيه بتلك القوة الطبيعية الجماعية (الشعبية) التي نجدها في ملاحمنا القديمة.

وسر قوة شعر المتنبي هذه الحكمة العميقة التي ضمنها شعره، وذلك القالب الغنائي الفلسفي الذي صاغ أبياته فيه، وهذا لا يمنعنا من القول بأن صيغة شعره الرائعة قد تضم أفكارًا عادية شائعة.

بيد أن ولع المتنبي بالشعر القديم فاق ولعه بأي شيء آخر، وقد صدر هذا الشعر عن أعماق نفسه العربية. ومن ثم كان قديرًا على تصوير النفس العربية وعالمها في أحسن صورة تصورتها العروبة، ومن هنا أيضًا لم تكن «بدوية» المتنبي

رجعةً إلى القديم، وإنما كانت صدى للوعي النفسي العربي الخالد.

فلما استقامت قواعد القصيدة القديمة من جديد، وحرص الشعراء على أن يقولوا شعرهم في حدودها، انحصر الشعر العربي بين أسوار عالية أضاقت أفقه ضيقًا شديدًا، وإن ضم هذا الأفق أطرافًا كثيرة مما استحدثه المحدثون، ودرج الشعر بعد ذلك بين هذه القيود، وانحدر في طريق اضمحلال طويل، وغدا متشابهًا مُعَادًا متعبًا مجهدًا.

ف٤ - الخصائص العامة للشعر الأندلسي

يقول غرسية غومس: « وقد نبع الشعر الأندلسي من بحر الشعر المشرقي، وتاريخه يصور لنا التطورات التي ألمنا بذكرها، فلقد كان لشعراء الأندلس ولع بدراسة الشعر الجاهلي، ولكنهم كانوا يرون فيه شيئًا أثريًا قديمًا، فلم يكن له في نفوسهم أثر فعال، وكذلك «المحدثون» لم يكن لهم عند شعراء الأندلس أثر بعيد، فيما خلا بدوات نلمحها بين الحين والحين، ونلاحظها في الناحية الجمالية التي ظهرت مع الشعر القديم المحدث. وعلة ذلك أنه في الوقت الذي ظهر فيه شعر جديد بهذا الاسم في الأندلس، كان الشعر القديم المحدث في أوجه في المشرق.

ولا بد أن ننبه من أول الأمر إلى أن الشعر الأندلسي عامة - فيما خلا بضع شواذ - فقير جدًا من الناحية الذهنية التفكيرية، ومن دلائل ذلك أن الناحية التي تأثروا بها من المتنبي كانت ناحية البراعة لا ناحية التفكير، وعاشوا أعمارهم كلها مكبلين بقيود القوالب الشكلية الجامدة، ومن ثم لم يستطيعوا أن يدخلوا على الشعر من التغيير إلا أشياء تمس المعاني، مثلهم في ذلك مثل أترابهم من المشارقة، فحاولوا أن يعطوا هذه المعاني صورًا جديدة عن طريق تقطيرها في أنابيق بلاغية، وأوغلوا في ذلك؛ حتى استخرجوا منها تلك الزخارف الشعرية

الأَريسكية(*) التي تشبه أن تكون «قصور حمراء» لفظية.

فإذا كانت القصائد الأندلسية المنمقة المترفة المعقدة المثقلة على هذه الدرجة من البعد عن الترتيب الذهني، بل من الإحساس الإنساني في أحيان كثيرة، فمن الطبيعي أن تنقصها تلك المرونة السائغة التي نجدها في الشعر القديم.

ولم يكن هذا الشعر الأندلسي مترعًا بالأخيلة فحسب، بل كان مثقلاً بها حُمِّلَ منها فوق ما يطيق، بل بلغ من حشد المعاني فيه أن استعصى معظمه على الحفظ والبقاء، وكاد يعسر على الفهم الكامل. وكما يحدث لشجرة مثقلة بالثمار إذ تسقط عنها الثمرات واحدة فواحدة، فكذلك وقع للشعر الأندلسي: لم يبقَ لنا منه إلا ما اقتطفه مصنفو كتب المختارات من تشبيهاته ومعانيه.

وإذا نحن استثنينا بضعة دواوين وقصائد مشهورة وصلت إلينا كاملة، فإن ما لدينا من الشعر الأندلسي قد وصل إلينا مقطعًا مبتسرًا، بل مطحونًا يتألق هشيمه الدقيق ببريق الماس.

فـ٥ - موضوعات الشعر الأندلسي

يقول غرسية غومس -في مقاله الذي أشرنا إليه في هذا الباب- إن الشعر الأندلسي طرق فنون الشعر كافة: من الزهد إلى الهجاء، ونظم شعراء الأندلس قصائد الحماسة، والنسيب، والمديح، والرثاء، والوصف بصفة خاصة، وذهب إلى أن هذا الشعر كان - بصفة عامة - فقيرًا من الناحيتين الفكرية والعاطفية، تغلب

(*) أرابسك Arabesque كلمة إفرنجية نجدها في اللغات الأوربية كلها. ومعناها عربي الروح، ولكنها لا تستعمل إلا في مواضيع الفن، ويراد بها الزخرفة الهندسية المتشابكة التي نعرفها في الزخارف الإسلامية، وقد رأيت أن أستعملها في صورتها الأوربية احتفاظًا بمعناها الخاص قياسًا على قولنا: «مورسكي»

عليه قلة الصدق.

فأما فيما يتصل بما فيه من نسيب، فإننا نظفر فيه بأبيات تتحدث عن «الحب العذري»، وهو ضرب من الهوى اشتهرت به طائفة من القبائل البدوية ومنها «بنو عذرة»، ووضع فيه ابن داود الظاهري (المتوفى ٩٠٩/٢٩٧) «كتاب الزهرة» الذي يعتبره ماسنيون « أول محاولة لوضع منهج شعري للحب الأفلاطوني»، ونجد نماذج أخرى من هذا النظر إلى الحب فيما كتبه ابن فرج الجياني وابن حزم القرطبي وصفوان بن إدريس المرسي. وهناك -إلى جانب ذلك- قصائد أخرى يعرض الشعراء فيها مشاهد مفصلة من الحب الحسي، يصفون فيها ما يقع بينهم وبين المحبوب وصفًا مطولاً متئدًا، وهم يرسلون هذه الأبيات على العادة بعد سهرٍ عربيد مسرف في الاستمتاع، ويلجأون إليها في أوصاف ليالي الأنس التي يقضونها مع عشاقهم على ضفاف الأنهار، متماسكين وإياهم كما يحيط السوار بالمعصم، ويتحدثون فيها عن مجالس السرور في مواضع اللهو - «كحور مؤمل » في غرناطة - تغنّيهم البلابل وتسطع عليهم النجوم. «ولقد كان التباين الظاهر بين الردف الثقيل والخصر النحيل أكبر مواضع جمال الجسد الأنثوي عند شعراء الأندلس...

وكان الوضع الخاص للمرأة في المجتمع الإسلامي سببًا في قلة فهم الناس للجانب النفسي من حياتها وخصائصها. فلم يعد المحبون منهم يستشعرون من جمالها إلا الحسي الملموس، أي الصورة البدنية، فاندفعوا في الإعجاب بها اندفاعًا عنيفًا لا يُرد، ولم يجدوا ما يبررون به هذا الاستمرار في الكلام في هذه الأوصاف المملة إلا بتنميقها وإرسالها في أساليب مؤنقة متنوعة مزينة بالزهور مرصعة بالدرر واليواقيت، وأضفوا على الجسد الجميل ثوبًا بديعًا نسجوه من كل ما عثروا عليه في الرياض؛ ويضم هذا الشعر كذلك أبياتًا كثيرة تتحدث عن الميل إلى الغلمان وحب المذكّر.

وكانت الخمريات أكثر فنون الشعر ذيوعًا بين شعراء الأندلس. وكانت عادة

الشُّرَّب أن يجتمعوا على الكئوس في البيوت أو الرياض أو على ضفاف الأنهار، كالوادي الكبير وإبْرُه. ولم تكن مجالسهم مجرد اجتماعات للشراب، وإنما اجتماعات أدبية شعرية كذلك. وكان المجلس ينقضي بين تقارض الشعر وارتجاله، يتخلل ذلك - بين الحين والحين - شدو جارية مغنّية يصاحبها عزف العود والطنبور والقيثارة، وتتوزع أحاسيس السُّمَّار بين زهر الأحلام وشطحات السكر ومشاعر الهوى».

وكان ولع شعراء الأندلس بالوصف عظيمًا، وهم يبدون لنا في أوصافهم وكأنهم يتأملون ما حولهم في فتور وبطء وإسهاب، كل ذلك في أسلوب رخو بالغ الليونة. ومن أمثلة ذلك وصف أبي الحسن على بن حصن لفرخ حمام في بطء واتئاد يذكراننا بصبر نقاشي المنمنمات:

وما هاجني إلا ابن ورقاء هاتف ... على فنن بين الجزيرة والنهر

مفستقُ طوقٍ لا زورديّ كلكلٍ ... موشى الطلي أحوى القوادم والظهر

أدار على الياقوت أجفان لؤلؤ ... وصاغ من العقيان طوقًا على الثغر

جديد شبي المنقار داج كأنه ... شبي قلم من فضة مُدَّ في حبر

توسد من فرع الأراك أريكة ... ومال على طيّ الجناح مع النحر

ولما رأي دمعي مُراقًا أرابه ... بكائي فاستولى على الغصن النضر

وحث جناحية وصفّق طائرًا ... وطار بقلبي حيث طار، ولا أدري(*)

وقول أبي جعفر بن عثمان المصحفي في سفرجلة:

(*) ابن سعيد: «الرايات»، ص١١.

ومصـــفرة تخـــتال في ثـــوب نـــرجس ... وتعـــبق عـــن مســـك زكـــي التـــنفسِ
لهـــا ريـــح محـــبوب وقســـوة قلـــبه ... ولـــون محـــبّ حلـــة الســـقم مكـــتسِ
فصـــفرتها مـــن صـــفرتي مســـتعارة ... وأنفاســـها في الطيـــب أنفـــاس مؤنـــسِ
فـــلما اســـتتمت في القضـــيب شـــبابها ... وحاكـــت لهـــا الأنـــواء أبـــراد ســـندسِ
مـــددت يـــدي بـــاللطف أبغـــي اقـــتطافها ... لأجعـــلها ريحـــانتي وســـْط مجلســـي
وكـــان لهـــا ثـــوب مـــن الزغـــب أغـــبر ... يـــرف عـــلى جســـم مـــن التـــبر أملـــسِ
فـــلما تعـــرت في يـــدي مـــن لباســـها ... ولم تـــبق إلا في غلالـــة نـــرجسِ
ذكـــرت بهـــا مـــن لا أبـــوح بذكـــره ... فأذبـــلها في الكـــف حـــر تنفســـي(*)

بيد أن هذه التباطؤ المتراخي في التعبير لم يحل دون شعرائهم وبين أن يبعثوا في تراكيبهم التشبيهية حيوية وسرعة غير عاديتين، فنجدهم ينتقلون بأذهانهم انتقالات سريعة يجمعون فيها بين المتباعدات، فيشبهون شيئًا صغيرًا بشيء كبير (الإبرة الدقيقة بالشهاب أو الكشتبان بخوذة من غير ريشة)، أو يفعلون العكس .

فيشبهون شيئًا كبيرًا بشيء صغير (كتشبيه مجاديف القارب بأهداب العين، أو أوطاب الساقية بالجفون)... ولم يغادر أولئك الشعراء شيئًا دون أن يشبهوه بشيء، ففي عالم النبات مثلاً لم يقف الشعراء عند دائرة الزهور العليا، بل وضعوا النيلوفر والخرشُف جنبا إلى جنب، ولم يروا بأسًا في أن يقترن الباذنجان بالنرجس.

وهكذا كانت كل الأشياء عندهم سواء، يستعملونها في تكوين صور نباتية ذات جمال تذكرنا بالزخارف المتشابكة التي تنقش في المرمر أو الرخام أو الجص على السواء؛ كل شيء يصلح أن يكون مادة للفن في أيديهم، ويجمع شعرهم

(*) ابن الأبار: «الحلة»، ص١٤٤.

أصداء الصحراء البعيدة - جنبًا إلى جنب - مع ما كان يحيط بالشعراء في البيئة الأندلسية الزاهرة، كالسواقي وشجر البرتقال.

ولم يظهر الأندلسيون براعة ذات بال في الشعر السياسي أو الحماسي، ولم يُوفّقوا كثيراً في شعر الحكمة والتهذيب، أما شعرهم الديني فتنقصه حرارة العاطفة، وهم ينتقلون فيه من الوعظ المبتذل إلى وجد الصوفية أو الثيوصوفية، دون تدرج أو تمهيد.

ومضى الأندلسيون في المدائح على نهج من تقدمهم من الشعراء، فأسرفوا وبالغوا. وخلت أشعارهم في هذا الباب مما يربطها بشخص المقولة فيه، بحيث يُستطاع أن توجه إلى أي إنسان إذا استبدلنا اسمه باسم الممدوح، ونظم الأندلسيون كذلك الأهاجي - العنيفة في الغالب - والمراثي التي تتفاوت في الروح وصدق الإحساس، فنجدها تارة فاترة متكلفة كما نرى في رائية ابن عبدون في رثاء بني الأفطس، وتارة صادقة مؤثرة، كما في نونية أبي البقاء الرندي في بكاء الأندلس وما أصاب بلاده على أيدي النصارى، وأصدق ما لدينا من هذا الضرب ما قاله المعتمد في منفاه يبكي نفسه وما أصابه من زوال ملك ونفي.

وقال الباورن فون شاك: «إن أشعار الأندلسيين، تمتاز - بصفة عامة - بجزالة الألفاظ، وجمال رنينها، وإبداع الأخيلة، وبُعد مداها. وبدلاً من أن يجعلوا الألفاظ مراكب للأفكار، وبدلاً من أن يدعوا القلوب تعبر عن أحاسيسها في فيض طبيعي، نجدهم يغدقون علينا طوفانًا من الألفاظ الرنينة والأخلية البراقة. وكأنما لم يقنعوا بتحريك عواطفنا وطلبوا إعشاء أبصارنا.

وإن أشعارهم لأشبه بألعاب نارية تومض ثم تتلاشى في الظلام، فتبهر العقول لحظة بوميضها، ولكنها لا تترك في النفس أثرًا دائمًا؛ وذلك بسبب ما تحويه هذه

الأشعار من الألوان المختلفة وصور التشبيهات يتوالى بعضها في إثر بعض دون هوادة.

وقد كان ترامي كثير من الشعراء على التفوق، ورغبتهم في الإتيان بأحسن مما أتى به من سبقهم أو نافسهم من مشاهير الشعراء، سببًا في إسراف الكثير من أشعارهم في ذلك التلكف إسرافًا أدى إلى ضياع قيمتها، إذ أصبحت مجرد إيماض عابر لا يترك في النفس أثرًا. أما نحن فنزن شعرهم بميزان يخالف ما اتخذوه، ومن ثَمَّ فإن تقديرنا لأشعارهم يزداد بقدر ما يقل تلكفهم في الغوص وراء المعاني البعيدة، وبقدر ما يطامنون من طموحهم إلى الإتيان بما لم يُسبقوا إليه؛ لأنهم في هذه الحالة يعبرون عن مشاعر صادقة في عبارات غير متكلفة.

«أما المواضيع التي تدور حولها أشعارهم فمن أنواع مختلفة: فهم يتغنون بمباهج الحب الموصول، ويصفون آلام الهوى الخائب، ويصورون بألطف الألوان هناء لقاء رقيق، ويبكون في لهجة مشبوبة آلام الفراق.

وقد حرك مشاعرهم جمال الطبيعة الأندلسية، فمضوا يمتدحون غاباتها وأنهارها وحقولها الخصيبة. ودفعهم ذلك الجمال على تأمل ضياء الشمس البهيج وصفاء الليالي الساجية تنيرها النجوم، وكانوا - إذا أشرقت نفوسهم بنور الإلهام - تداعت إلى أذهانهم من جديد ذكريات المواطن الأولى التي أقبل منها قومهم؛ حيث كان أسلافهم يضربون في الفيافي والقفار تحت شمس لافحة، فكانت تصدر عن نفوسهم - بين الحين والحين - نفثات فياضة بعصبية جنسية غريبة. كانت تنبعث من أفواههم عنيفة كأنها أعاصير صحراء، وكان لهم - إلى جانب ذلك - شعر ديني زهدي عامر بالتقى العميق والشوق إلى الله، وكانوا تارة يدعون ملوكهم وشعوبهم إلى الجهاد في سبيل الله بعبارات تتوفز حمية، وتارة أخرى يرثون أولئك الذي استشهدوا، ويتحسرون على المدائن التي استغلبها العدو، والمساجد التي حولها النصارى إلى كنائس، ويبكون بالدمع السخين مصير أسراهم التعساء الذين

يعانون آلام الأسر في بلاد النصاري العاتية، ويتشوقون -على غير أمل- على ضفاف «شِنِّيل» الزاهرة.

وكان أولئك الشعراء يتغنون بما كان لأمرائهم من أريحية وجاه، ويطنبون في وصف قصورهم ورواء حدائق تلك القصور. وكانوا يصحبون أولئك الأمراء إلى ميادين القتال، ويصفون طعان الأسنة، والحرابَ المخضبة بالدماء، والخيل التي تسبق الريح في عدوها. ويتوارد في أشعارهم كذلك ذكر الكئوس المترعة بالخمر تدور على السُّمَّار، والنزهات الليلية في زوارق تتهادى على صفحات الماء على ضوء المشاعل، ويصفون في هذه الأشعار تعاقب فصول السنة، فصلاً بعد فصل، وما يطرأ على الطبيعة أثناء ذلك من تطور. ويذكرون نوافير الماء ذات الخرير العذب، وغصونَ الشجر يصافحها النسيم فيميل بعضها على بعض، وقطرات الندى المتألقة على الأزهار، وأشعة القمر المنعكسة على الأمواج. ويصورون - في شعر رقراق - جمال البحر والقبة الزرقاء، والنجومَ، والورود، والنرجس، وزهر الرمان. وأبدع أولئك الشعراء قصائد صوروا فيها الطُّرف التي كانت تضفي على قصور السادة جوًّا من الترف المصقول: كتماثيل البرنز، والعنبر، وأواني الزهر الفاخرة، والحمامات، ونافورات الماء المرمرية، والأُسود التي تمج الماء من أفواهها.

«أما شعرهم في الحكمة والفلسفة فيدور كله حول زوال هذه الحياة الدنيا، وقصر أجلها، وتقلب أحوالها؛ ويتحدث عن القضاء الذي لا مفر لإنسان منه، وقلة غناء خيرات هذه الدنيا؛ ويتغنى بذكر الفضائل الخلقية والعلوم ويقدرها حق قدرها.

وكان شعراؤهم يستحبون الإلمام في أبياتهم بذكر لحظات العيش الهنيئة: فيصفون لقاء الحبيب في الليل، أو ساعةً راخية في صحبة شاديات حسناوات. وربما صوَّروا جارية تقطف ثمرًا من فنن، أو غلامًا جميلاً يسقي الشُّرَّب، وما أشبه ذلك.

كما أكثروا في التغني بأوصاف مدائن إسبانيا وكُوَرها، وما فيها من مساجد وقناطر وسقايات وريف نَضِر، وغير ذلك من منشآت باهرة. ثم نجد هذا الشعر - آخر الأمر - مرتبطًا في الغالب أشد الارتباط بحياة الشاعر نفسه: فهو صادر عن وحي إحساس اللحظة التي قيل فيها، وهو إنما كان يرسل ارتجالاً على المألوف من صور الشعر السامي القديم»[٧].

ونحب الآن أن نضع بين يدي القارئ بعض نماذج الإنتاج الشعري للأندلسيِّين، ذاكرين المقدَّمين من الشعراء مرتَّبين على حسب عصورهم، وينبغي أن ننبه إلى أنه من غير الميسور أن نلمَّ بذكر الشعراء الأندلسيِّين جميعًا؛ لأنهم لا يُحصون كثرة. هذا، والكثير من أولئك الشعراء أدركوا شهرةً طائرةً لمجرد أنهم أسهموا في بعض كبار الحوادث التاريخية، لا لأنهم شعراء مبرزون. بينما ظل كثيرون آخرون لا يكاد يُعرف من شعرهم شيء، على الرغم من امتيازهم وتجويدهم.

وإلى أن يُدرس هذا الفن من الأدب الأندلسي دراسة تحليلية شاملة، لن يكون من الميسور وضع مؤلَّف شامل عنه؛ ومن ثمَّ فإنَّ الصفحات التالية ليست إلا مختارات من بين الشائع المعروف من هذا الشعر.

وإننا لنرجو القارئ أن يقدِّر - وهو يقرأ نصوص الأشعار العربية مترجمة إلى الإسبانية - أنها أشعارمنقولة تفقدها الترجمة جانبًا عظيمًا من بهائها وقيمتها، شأنها في ذلك شأن كلِّ شعر يُنقل من لغة إلى لغة؛ بل ينبغي أن يُذكر أن لهذا الشعر في أصوله العربية قواعده المتعارف عليها بين أهله، وهي قواعد تجعل القالب اللفظي الذي يصاغ فيه الشعر أول خصائص هذا النوع من القريض، ومن ثم فإننا نجد بعض المنظومات - التي اعتبرها نقاد الأدب العربي ومؤرخوه ممتازة في وقتها - جامدةً وخالية من الجمال.

وقد فضّلنا - في بعض الأحيان - أن نُورد الترجمة الإسبانية التي قال بها خوان دي فاليرا لكتاب البارون دي شاك «شعر عرب إسبانيا وصقلية وفنّهم» Poesia y Arte de los Arabes de Aspana y Sicilia لأن هذه الترجمة - على قلة دقتها - أجمل بكثير من ترجمة الشعر نثرًا؛ وهي - على كل حال - تحمل إلى القارئ الفكرة الأساسية. وقد أتينا - في أحيان أخرى - بالأبيات مترجمة بأقلام دوزي أو بونس بو يجس أو ريبيرا أو غيرهم، أو قمنا بالترجمة بأنفسنا.

يتبين الإنسان في تطور الشعر الأندلسي اتجاهين أساسيّين:

(أ): فصيح، و(ب): شعبي دارج[٨].

(أ) الشعر الفصيح

١- عصر الإمارة

عبد الرحمن الداخل - أبو المخشمي - ابن حبيب - الحكم الربضي - زرياب وابتكاراته - يحيى الغزال وتمام بن علقمة - الأمير عبد الله - سعيد بن جودي - شعراء البلاط.

ف٦- طلائع شعراء عصر الإمارة

لا نجد بين أيدينا مجموعًا شاملاً لشعر هذا العصر، على الرغم من أن شيئًا من ذلك قد وُجِدَ بالفعل، فقد وصل إلينا عنوان مؤلَّف للأَفْشُتِين (المتوفى سنة ٣٠٧/ ٩١٩) - عتيقِ الأمير المنذر - هو: «طبقات كُتَّاب الأندلس»[٩]. ومن المؤكد أن هذا الكتاب كان يضم شعرًا، ووصلت إلينا كذلك أسماء شعراء - مثل قرلمان[١٠]، وغريب بن عبد الله[١١] - يطنب الناس في مدح شعرهم وما يمتاز به من طابع قومي، وكان الأمراء أنفسهم يقولون الشعر، ومن أمثلة ذلك أنَّ عبدَ الرحمن الداخل (١٣٨ / ٧٥٥ -١٧٣/٧٨٨) - مؤسس الدولة الأموية الأندلسية - رأي نخلة في حديقة قصر (الرّصَافة) - ولا بد أنها كانت أول نخلة زرعت في أوربا فهيجت شجنه، فقال:

يـا نخـلُ، أنـت غريـبة مـثلي ... في الغـرب، نائـية عـن الأصـل
فـأبكي، وهـل تـبكي مكبسـة ... عجمـاء لم تطـبع عـلى خـبلْ؟
لـو أنهـا تـبكي، إذن لبكـت ... مـاءَ الفـرات ومنبـتَ الـنخلِ
لكـنها ذهلـت وأذهلـني ... بغضـي بـني العـباس عـن أهلـي[١٢]

وقال عبد الرحمن - ردًّا على قرشي استقل العطاء الذي منحه إياه - أبياتًا أشار فيها إلى الصعاب التي لقيها في حياته:

شـــتان مـــن قـــام ذا امـــتعاضٍ ... مُنتضـــيَ الشـــفرتين نصـــلا
فجـــاب قفـــرًا، وشـــقَّ بحـــرًا ... مســـاميًا لجـــة ومَحْـــلا
دَبَّـــر مُلكًـــا، وشـــاد عـــزًّا ... ومنـــبرًا لـــلخطاب فصـــلا
وجَـــنَّد الجـــند حـــين أودى ... ومصَّـــر المصـــر حـــين أخـــلى
ثـــمَّ دعـــا أهلـــه إلـــيه ... حيـــث انـــتأوا، أن هـــلم أهـــلا
فجـــاء هـــذا طـــريد جـــوع ... شـــريد روع يخـــاف قـــتلا
فـــنال أمـــنًا، ونـــال شـــبعًا ... ونـــال مـــالاً، ونـــال أهـــلا
ألم يكـــن حـــق ذا عـــلى ذا ... أعظَـــمَ مـــن مـــنعم ومـــولى؟[١٣]

وعاش -في أيام الأمير عبد الرحمن هذا - أبو المخشي: عاصم بن زيد التميمي الشاعر؛ وكان متضويًا إلى الأمير سليمان - أكبر أبناء عبد الرحمن - فحقد عليه بعض أصحاب هشام - ثاني أولاد عبد الرحمن - «فمدح سليمانَ بن عبد الرحمن بشعر، وتوهَّم عليه فيه أنَّه عرَّض بهشام أخيه - وكانت بينهما مباعدة - فسمل عينيه؛ فقال في العمي شعرًا حسنًا، ثم قصد به عبدَ الرحمن بن معاوية، فأنشده إياه، فرقَّ له واستعبر، ودعا بألفي دينار فأعطاه، وضاعف له دية العينين. وهو الشعر الذي أوله:

خضـــعت أم بـــناتي للعـــدا ... أن قضـــى اللـــه قضـــاءً فمضـــى
ورأت أعمـــى ضـــريرًا إنَّمـــا ... مشـــيُه في الأرض لمـــسٌ بالعصـــا
فاســـتكانت، ثـــم قالـــت قولـــةً ... - وهـــي حَـــرَّى - بلغـــت مـــني المـــدى
فقـــوادي قَـــرِح مـــن قولهـــا: ... «مـــا مـــن الأدواء داءٌ كـــالعمى»![١٤]

وقال الحكم الربضي[١٥]، بعد أن أخمد ثورة أهل ربض قرطبة:

رأيتُ صدوع الأرض بالسيف راقمًا … وقدمًا لأمتُ الشعب مذ كنت يافعا
فسائل ثغوري: هل بها الآن ثغرة … أبادرها مستضيَ العزم دارعا
وشافه على الأرض الفضاء جماجما … كأقحاف شريان الهيد لوامعا
تنبئك أني لم أكن عن قراعهم … بوانٍ، وأني كنت بالسيف قارعا[16]
فإني إذا حادوا جزاعا عن الردى … فلم أك ذا حَيْد عن الموت جازعا
حميتُ ذماري وانتهكت ذمارهم … ومن لا يحامي ظلَّ خزيان ضارعا
ولما تساقينا سجال حروبنا … سقيتهم سمًّا من الموت ناقعا
وهل زدت أن وفّيتهم صاع قرضهم … فوافوا منايا قُدِّرت ومصارعا
فهاك بلادي إنني قد تركتها … مهادًا ولم أترك عليها منازعا

ف٧- زرياب وابتكاراته

يحتل عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦/ ٨٢١ - ٢٣٨/٨٥٢) في تاريخ الشعر الأندلسي مكانًا يفوق مكانة أسلافه. ولا يرجع السبب في ذلك بحال إلى المقطعات التي نظمها في جاريته طروب، أو ردًا على أبيات أخرى قالها الشاعر عبدُ الملك بن الشَّمَر ممتدحًا الأمير وشاكرًا له عطاياه[17] بل لأنه اجتذب إلى الأندلس زريابًا المغني (والزرياب طائر أسود غَرِدٌ) الذي أدخل إلى الأندلس الموسيقى والغناء العربيين المشرقيين، وهما فنان نهج عرب المشرق فيهما على أصول قديمة.

كان زرياب تلميذًا لإسحاق الموصلي في بغداد. ثم وقعت بينهما مجافاةٌ؛ لأن زريابًا أبدى من المهارة في حضرة الرشيد ما فاق به أستاذه، «فسُقِطَ في يد إسحاق، وهاج به من داء الحسد ما غلب على صبره» فرأى زرياب ألاَّ مَناص من الخروج عن العراق، فخرج إلى الغرب ناجيًا بنفسه من غضب أستاذه وعرض خدماته على الحكم الربضي، فدعاه إلى القدوم عليه في قرطبة، فسار زرياب؛ حتى بلغ الجزيرة

الخضراء، وهناك بلغه موت الحكم؛ فلما ولي عبد الرحمن بن الحكم أدخله في خدمته.

فرض له عبد الرحمن عطاءً قدرُه مائتا دينار في الشهر، وقرر له ثلاثة آلاف دينار في كل من العيدين، وفرض له كذلك مائتي مدٍّ من الشعير، ومثلها من القمح، هذا إلى جانب حدائق وقصور وهبه إياها تقدر قيمتها بأربعين ألف دينار؛ فأقبل زرياب وأصبح موسيقيَّ الأمير.

كان زرياب يدَّعي «أنَّ الجن كانت تعلمه كل ليلة ما بين نوبة إلى صوت واحد، فكان يهب من نومه سريعًا فيدعو بجاريتيه غزلان وهنيدة، فتأخذان عوديهما ويأخذ هو عوده فيطارحهما ليلته، ثم يكتب الشعر، ثم يعود عَجِلاً إلى مضجعه»[١٨]. وقد أضاف إلى العود وترًا خامسًا - وكان إلى أيامه أربعة أوتار فحسب تقابل الطبائع البشرية الأربع - عُرف بالوتر الأوسط الدموي الأحمر، ووضعه تحت المثلث وفوق المثنى. «وذلك أن «الزير» صبغ أصفر اللون وجُعل في العود بمنزلة الصفراء من الجسد؛ وصبغ الوتر الثاني بعده أحمر وهو من العود بمكان الدم من الجسد، وهو في الغلظ ضعف الزير، ولذلك سمي «مثنى»؛ وصبغ الوتر الرابع أسود، وجعل من العود مكان السوداء من الجسد وسمي «البم» وهو أعلى أوتار العود، وهو ضعف المثلث الذي عطل من الصبغ وترك أبيض اللون، وهو من العود بمنزلة البلغم من الجسد وجعل ضعف المثنى في الغلظ ولذلك سمي «المثلث»؛ وقام الخامس المزيد مقام النَّفس من الجسد»[١٩]، (كذا الأصل).

«وهو الذي اخترع بالأندلس مضراب العود من قوام النسر - مُعْتَاضًا بها من مرهف الخشب - فأبدع في ذلك، للطف قشر الريشة، ونقائه وخفته على الأصابع، وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إياه»[٢٠].

وكان زرياب شاعرًا مُجيدًا، ومتضلعًا في فنون مختلفة «كالنجوم، وقسمة الأقاليم السبعة، وتصنيف بلادها وسكانها» والطبيعة، والسياسة، والتنجيم.

وكان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها، وكان سلوكه معتبرًا نموذجًا يحتذيه الناس. وكان النَّاس يتبعونه فيما يتخذ من ثياب وما يعمله من زينةٍ (تصفيف الشعر والملابس والعطور والمآكل وأسلوب ترتيب المائدة، وما إلى ذلك)[٢١].

وقد أدخل زرياب إلى الأندلس صُنع الألحان على طريقة أهل الموصل، فغلبت على طريقة أهل الحجاز التي كان النَّاس يجرون عليها في الأندلس قبل ذلك[٢٢]، وكان يمثلها في بلاط عبد الرحمن ثلاث من المغنيات هن: «فضل» و«علم» و«قلم»[٢٣].

وقد اجتهد زرياب في تكوين مدرسته الموسيقية، مستعينًا في ذلك بأبنائه وبناته[٢٤] وجاريته «متعة»، وانتهى الأمر بأن أصبحت الطريقة الأندلسية التقليدية، على رغم ما كان زرياب يلقى من سخرية يحيى الغزال وتعريض ابن عبد ربه به. وكان من تلاميذ زرياب جارية تسمى «مصابيح»، وأبى مولاها أن يدعها تغني للشاعر أبي عمر بن عبد ربه، فصنع هذا الأبيات وبعث بها إليه:

يا من يضن بصوت الطائر الغَرِد ... ما كنت أحسب هذا الضن من أحد

لو أنَّ أسماع أهل الأرض قاطبة ... أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد

وكان رجال الدين لا ينظرون إلى الموسيقى بعين الرضا، وكان الفقهاء يعتبرون الاشتغال بها أمرًا منحطًا لا يليق إلا بالموالي والإماء وذوي السمعة السيئة. ولم يكونوا يقبلون شهادة المغني أو المغنية أو النادبة، ولم يسمحوا بأن تباع كتب الموسيقى والأناشيد علنًا، بل كان القضاة المتشددون يأمرون بكسر آلات الموسيقى التي توجد مع المغنين في الطرقات.

ولكن سوق الفن الموسيقى نفقت في الأندلس -على رغم ذلك كله - وذاع أمره بين الناس ذيوعًا واسعًا. وكانت فِرق الموسيقيين والمغنيِّين أمرًا شائعًا في قصور الخلفاء في عهد بني أمية، وفي حكم المنصور، وعصري المرابطين والموحدين. وكان أولئك الخلفاء والأمراء يشترون الجواري ذوات الصوت الحسن بمبالغ لا تصدق. وكان الموسيقيون يشربون الخمر في طول الأندلس وعرضه، تدلنا على ذلك تلك الثروة الضخمة من الخمريات التي خلّفها شعراء الأندلس، والأخبار الكثيرة المتواردة في الخمر ومجالس الشراب في كتب التاريخ والأدب.

ونبغ من أهل البلاد موسيقيون وضعوا ألحانًا مبتكرة على الطريقة المشرقية، نذكر منهم عبد الوهاب بن الحسين بن جعفر الحاجب - وكان شاعرًا حسنًا يقيم في بيته ومع أهله حفلات موسيقية - وأبا جعفر الوقّشي، الوزير الطليطلي الذي يبدو أنه اخترع عودًا يعزف من تلقاء نفسه بلا ضرب[٢٥].

فـ٨ - يحيى الغزال وتمام بن علقمة

وفي نفس العصر الذي عاش فيه زرياب عاش يحيى بن الحكم البكري (١٥٤ /٧٧٠-٢٥٠/٨٦٤)، وكان رجلاً من طراز آخر غير طراز زرياب. وكان أصله من جيان، وكانوا يلقبونه بالغزال لجماله. وكان رجلاً حكيمًا أرسله عبد الرحمن الأوسط في سفارة إلى بلاط ملك النرمانيين، فاستمال قلوب الناس هناك بظُرفه، وأعجبت به الملكة «تود» ونساء حاشيتها خاصة، «فكانت - أي الملكة - لا تصبر عنه يومًا؛ حتى توجه فيه». وقد ألهمته هذه السفارة وغيرها إلى بلاطات أخرى نصرانية أشعارًا لطيفة جميلة.

وقد نفاه عبد الرحمن الأوسط من الأندلس بسبب هجائه المقذع لزرياب، فذهب إلى العراق بُعيد وفاة أبي نواس شاعر الخمر ولذات العيش في بلاط هارون الرشيد. «وجلس يومًا مع جماعة منهم فأزروا بأهل الأندلس واستهجنوا أشعارهم،

فتركهم؛ حتى وقعوا في ذكر أبي نواس، فقال لهم: من يحفظ منكم قوله:

وَلَمّا رَأَيتُ الشَّربَ أَكدَت سَماؤُهُم ... تَأَبَّطتُ زِقّي وَاحتَسَبتُ عَنائي

فَلَمّا أَتَيتُ الحانَ نادَيتُ رَبَّهُ ... فَثابَ خَفيفَ الروحِ نَحوَ نِدائي

قَليلَ هُجوعِ العَينِ إِلّا تَعِلَّةً ... عَلى وَجَلٍ مِنّي وَمِن نُظَرائي

فَقُلتُ: أَذِقنيها! فَلَمّا أَذاقَها ... طَرَحتُ عَلَيهِ رَيطَتي وَرِدائي

وَقُلتُ أَعِرني بِذلَةً أَستَتِرْ بِها ... بَذَلتُ لَهُ فيها طَلاقَ نِسائي

فَوَاللَهِ ما بَرَّت يَميني وَلا وَفَت ... لَهُ غَيرَ أَنّي ضامِنٌ بِوَفائي

فَأُبتُ إِلى صَحبي وَلَم أَكُ آيِبًا ... فَكُلٌّ يُفَدّيني وَحُقَّ فِدائي

فأعجبوا بالشعر وذهبوا في مدحهم له؛ فلما أفرطوا قال لهم: «خفّضوا عليكم فإنه لي!» فأنكروا ذلك، فأنشدهم قصيدته التي أولها:

تداركت في شرب النبيذ خطائي ... وفارقت فيه شيمتي وحيائي

فلما أتم السورة بالإنشاد خجلوا وافترقوا عنه»[٣٦].

وقد نظم الغزال أرجوزة في «فتح الأندلس» قال فيها ابن حيّان: إنها «كانت جميلة طويلة، عرض فيها أسباب الفتح والوقائع التي جرت بين المسلمين والنصارى، وأطال الحديث عن أمراء هذا الصّقع في أسلوب جميل فيه عمق، وكانت شائعة متداولة بين أيدي الناس. وقد ضاعت هذه الأرجوزة»[٣٧].

وقد نظم تمام بن عامر بن علقمة (١٨٤/٨٠١-٢٨٣/٨٩٦) «الأرجوزة المشهورة في ذكر افتتاح الأندلس، وتسمية ولاتها والخلفاء فيها، ووصف حروبها من وقت دخول طارق بن زياد مفتتحها إلى آخر أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم. وكان عالمًا أديبًا، ذكر ذلك ابن حيان»[٣٨]، أي أنه فعل ما فعله يحيى الغزال قبله.

وعاشت في عصري الحكم الرضي وعبد الرحمن الأوسط (القرن التاسع الميلادي) حسَّانةُ التميميةُ، وكانت يتيمة استُصفيت أملاك أبيها فتقدمت بشكواها إلى الأمير الحكم بن هشام، فأمر عامل «البيرة» برد أملاك أبيها إليها. ومات الحكم بعد ذلك بقليل، فانتهز العامل الفرصة ولم يرد إليها أموالها؛ فما زالت تلح على عبد الرحمن الأوسط؛ حتى أجاب مطلبها.

ف٩ - الأمير عبد الله - سعيد بن جودى - شعراء البلاط

من المعروف أن النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي في التاريخ السياسي للأندلس يتميز بوهن سلطان الأمراء (محمد والمنذر وعبد الله)، وبازدياد نشاط حركة القومية الإسبانيّة (عمر بن حفصون وبنو قسي) من ناحية، ومن ناحية أخرى بزيادة قوة جماعات العرب المستقرة في النواحي، وتمكن هؤلاء جميعًا من تحويل الأندلس الإسلامي إلى مجموعة كبيرة من النواحي المستقلة بالفعل عن سلطان أمير قرطبة.

وكان الأمير عبد الله يقول في الغزل أبياتًا من طبقة عالية، مثل قوله:

ويْحي على شادن كحيل	في مثله يخلع العذار
كأنما وجنتاه ورد	خالطه النور والبهار
قضيب بان إذا تثنى	يديرُ طرفًا به احورار
فصفو ودي عليه وقف	ما أطرد الليل والنهار[٢٩]

بيد أن أحسن شعراء هذه الفترة هو من غير شك سعيد بن جودي[٣٠]، النموذج الصادق للفارس العربي. وكان يمثل العصبية العربية في بعض أدوار صراعها، مع عمر بن حفصون.

وقد حفظ لنا الرواة من شعره أبياتًا قالها في صدد وقعتي شاد والمدينة، وصف

فيها سوء حاله في أسر عمر بن حفصون؛ وأبياتًا أخرى ذات عاطفة مشبوبة، قالها بعد أن فُكَّ أسره في سنة ٨٩٠/٢٧٧ يتغزل في «جيجان» مغنية عبد الله الذي أصبح بعد ذلك بقليل أميرًا على الأندلس.

ولقد سبق سعيدُ بن جودي ابنَ حزم في التغني بالهوى العذري الميئوس منه، ومن ذلك تلك الأبيات التي بلغت أعلى درجات الرقة:

سَمعي أَبى أَن يَكونَ الرّوحُ في بَدَني ... فَاعتاضَ قَلبي مِنهُ لَوعَةَ الحُزَنِ

أعطيت جيجانَ روحي عَن تَذَكُّرِها ... هَذا وَلَم أَرَها يَومًا وَلَم تَرَني

كَأَنَّني وَاسمُها وَالدَّمعُ مُنسَكِبٌ ... مِن مُقلَتي راهِبٌ صَلّى إِلى وَثَنِ[٣١]

ونجده في أبيات أخرى طروبًا للحياة مستغرقًا في لذاذات العيش:

لا شَيءَ أَملَحُ مِن ساقٍ عَلى عُنُقٍ ... وَمِن مُناقَلَةٍ كَأساً عَلى طَبَقِ

وَمِن مُواصَلَةٍ مِن بَعدِ مُعتَبَةٍ ... وَمِن مُراسَلَةِ الأَحبابِ بِالحَدَقِ

جَرَيتُ جَريَ طَموحٍ في الصِّبا طَلَقًا ... وَما خَرَجتُ لِصَرفِ الدَّهرِ عَن طَلَقي

وَلا انثَنَيتُ لِداعي المَوتِ يَومَ وَغىً ... كَما انثَنَيتُ وَحَبلُ الحُبِّ في عُنُقي[٣٢]

وفي هذا العصر كذلك عاش شعراء لا يرى فيهم غرسية غومس إلا «نظّامين لا يمتازون ببراعة»: مثل بكر الكناني، وعباس بن ناصح، وغريب بن عبد الله، وقَرامان، وعبيديس بن محمود، وابن سمرة، والقلفاط، وأبي المخشي، وابن كلثوم، وحسَّانة التميمية، وعباس بن فرناس، تتجلى لنا في بعض شعرهم القيمة السياسية للشعر، كالذي نعرفه في الشعر الجاهلي؛ وبعضهم الآخر شعراء بلاط لا يلقى شعرهم من جمهور الناس إقبالاً ولا ذيوعًا بينهم[٣٣].

٢ـ عصر الخلافة

ابن عبد ربه - منذر بن سعيد البلوطي - ابن هانئ - الزبيدي- شعراء المنصور - صاعد البغدادي - الرمادي - الوزير أبو المغيرة - ابن أبي زمنين - ابن الهندي - الفرضي - حبيب الصقلي - الشاعرات - ابن حزم القرطبي

ف١٠

قال غرسية غومس في أسلوبه الشعري الجميل، متحدثًا عن الأدب الأندلسي في هذا العصر:

«لم يصل الشعر الأندلسي إلى أوجه الكامل وسَمْته الجمالي إلا في القرن العاشر الميلادي الذي يقترن بقيام الخلافة الأموية الأندلسية عام ٩٢٩/٣١٧ فلقد انتصرت السياسة الأموية الحكيمة على الأزمات كلها: فلم يوفق القديس يولوجيوس إلى استثارة أهل الدين من المستعربين، ولم يلهب حماسهم النسر الأندلسي الذي اعتصم بوكنته في بُبَشْتَرُ (يشير إلى عمر بن حفصون).

لقد اختلطت بالتربة الأندلسية القديمة العناصر الجديدة التي حملها العرب معهم من فارس وبيزنطة. وقد شجع عملية المزج هذه، وعمل على تقويتها، عامل على أكبر جانب من الأهمية وقف محايدًا بعيدًا عن التيارات المتضاربة كلها: ذلك هو البيت الأموي. نعم إنه كان عربيًا صرفًا - ومن ثم لم يكن إسبانيًا - ولكن خصومته العنيفة مع العباسيين المشارقة خففت من عصبيته العربية، وجعلته لا يميل إلى العرب وحفزته على التقرب من غيرهم.

ولقد كانت قرطبة بلدًا نصف عربي، يتحدث أهله العربية وعجمية أهل الأندلس، ويختلط فيه رنين الأجراس بأذان المؤذن. وكان بعض شعراء الأندلس

يفيئون إلى ظلال البَيع المستعربية الصغيرة؛ ليصيبوا شيئًا من النبيذ، فجددوا بذلك ما عرفه شعراء البدو من شرب النبيذ في ديور الصحراء المتأبدة في القفر. وتجلى اختلاط الأجناس بعضها ببعض، وتجاور الديانات بعضها لبعض، عن جو سمح جميل إنساني شفاف - نفس الجو الحضاري الذي نعرفه في بغداد أيام ألف ليلة - خالصًا من كل ما يرتبط بالشرق في أذهاننا أبدًا من جلافةٍ يشوبها الغموض. لقد قبس طابع الغرب من نسائم سيرامورينا الرقيقة الريفية.

كانت قرطبة تقبل كل شيء وتتمثله وتحوله إلى شيء آخر بعد تصفيته: فلقد كانت الرايات وملابس الحداد سوداء في بغداد، فأصبحت بيضًا في الأندلس. وفي تلك الأعصر كانت الممالك النصرانية في الشمال تعيش في جو قروي فقير، أما ملوك إسبانيا الحقيقيون فكانوا سادة قرطبة: عبد الرحمن، والحكم، والمنصور. وبين أيدينا مصاديق ذلك لائحة للعيان:

فهذه أقواس المسجد الجامع ساجية في شبه ظل يروع النفس، وتلك خرائب مدينة الزهراء الرائعة تحولت اليوم إلى ملاعب لمصارعة الثيران، وتضم الكنائس الجامعة والمتاحف قِطَعًا من بديع النسيج وصناديق العاج تتحدث كلها عن تلك الأمجاد التي لا يخبو ضياؤها، ويتحدث عنها كذلك - بأجلى بيان - الشعر الكثير الذي أُثر عن أزمانها.

ولقد عرف الأندلس على أيام الناصر (٣٠٠/٩١٢-٣٥٠/٩٦١) دواوين المتنبي وغيره من أئمة القريض العربي الفصيح المجدَّد، وعلى قصور ذلك الخليفة العظيم وابنه الحكم المستنصر العالم الجمَّاع للكتب (٣٥٠/٩٦١-٣٦٦/٩٧٦) والوزير الخطير العظيم السلطان المنصور بن أبي عامر (توفي عام ٣٩٣/١٠٠٢) وفد سفراء الثقافة المشرقية: من أبي علي القالي (دخل الأندلس عام ٣٣٠/٩٤١)، إلى صاعد البغدادي (وفد عام ٣٨٠/٩٩٠).

وعلى هذه القصور الزاهرة وفدت كذلك سفارات نصرانية من الغرب، ومن بيزنطة البعيدة، حاملة معها ألطافًا بديعة من الفسيفساء وكتب ديوسقوريد التي وضعت في الأندلس بذور نهضة العلوم الطبيعية التي بلغت أوجها في القرن الثالث عشر الميلادي. كان حشدًا جامعًا من الثقافة الجديدة يعتمل ويختمر في قرطبة.

وفي ظلال جيوش الخلفاء المظفرة وأسنتها المشرعة التي لا تغلب كان الكتاب ينشئون، والعلماء يحاضرون إلى جوار عمد المسجد الجامع؛ وانصرف الأغنياء إلى التنافس في جمع الكتب، وغنى القيان، ونظم الشعراء، وعكف العلماء على تصنيف طلائع مجموعات النظم والنثر.

وإذا نحن استثنينا من استأخر من شعراء عصر الإمارة وعاش ردحًا من عصر الخلافة، ونفرًا من الوشّاحين، وجدنا في طليعة شعراء هذا العصر ابن عبد ربه (توفي عام ٣٢٨/٩٣٩) صاحب «العقد الفريد» الذي بهر العيون بمدائحه، وابن هانئ الإلبيري (توفي عام ٣٦٢/٩٧٢) الذي لم يلبث أن غادر الأندلس ولحق بملوك المغرب والذي شبه المعري شعره «برحى تطحن قرونًا»(*) والزبيدي (المتوفى عام ٣٧٩/٩٨٩)، وابن أبي زمنين (توفي ٣٩٨/١٠٠٧)، وأولئك الشعراء الذين ذكرهم ابن حزم في «رسالته»، والمصحفي (توفي عام ٣٧٢/٩٨٢) الذي جرده المنصور من طارفه وتليده وحبسه، وابن فرج الجياني (توفي عام ٣٦٦/٩٧٦) صاحب «كتاب الحدائق» الذي ضاهى به «كتاب الزهرة» لابن داود الأصفهاني، والشاعر الرقيق «الأمير الطليق» (توفي عام ٤٠٠/١٠٠٩) الذي أودع المحبس لقتله أباه، وكان يغار منه، وابن شخيص، والرمادي، (توفي ٤١٣/١٠٢٢)، وابن إدريس الجزيري (توفي ٣٩٤/١٠٠٣) وابن درّاج القسطلي(توفي ٤٢١/١٠٣٠) وكان شاعرًا معقدًا عسير الفهم مثل جُنْجُرة

(*) ابن خلكان : «وفيات الأعيان»، رقم ٦٤٠ – ترجمة ابن هانئ.

الشاعر الإسباني، وابن برد (توفي ١٠٥٣/٤٤٥)؛ وغيرهم كثيرون.

ولا بد أن نذكر من بين الكثيرين الذين ظهروا بعد ذلك بقليل في أيام عبد الرحمن الخامس المستظهرَ بالله - الذي لم يَطُلْ حكمه (توفي ١٠٢٤/٤١٥) - فقد أحاطت به هالة من أهل الأدب، وكان هو نفسه أديبًا.

وقد نظم الأندلسيون في كل فن وباب: من الزهديات والتاريخيات إلى التوريات التي أكثر الناس منها على عصر المنصور[٣٤].

ولابن فرج الجياني (توفي ٩٧٦/٣٦٦) صاحب «كتاب الحدائق» أبيات جميلة تعتبر نموذجًا للغزل العذري عند شعراء العرب، وقد ترجمها غرسية غومس وجعل عنوانها :«عفة» وهي التالية:

وطائعة الوصال عدوت عنها ... وما الشيطان فيها بالمطاع

بدت في الليل صافرة فباتت ... دياجي الليل سافرة القناع

فملكت النهى جمحات شوقي ... لأجري في العفاف على طباعي

ويث بها مبيت السُّقْبِ بظما ... فيمنعه الكعام من الرضاع

كذلك الروض ما فيه لمثلي ... سوى نظم وشم من متاع

ولست من السوائم مهملات ... فأتخذ الرياض من المراعي[٣٥]

وأروع ما وصل إليه الشعراء في الوصف وصل إليه أبو جعفر المصحفي (توفي ٩٨٢/٣٧٢) - وزير الحكم المستنصر وهشام المؤيد - في تلك القطعة التي قالها في وصف سفرجلة (ص٤٥)[٣٦].

ف١١- ابن عبد ربه- سعيد بن منذر البلوطي:

ومن المذكورين النابهين من شعراء هذا العصر أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه (٢٤٠/٨٦٠-٣٢٨/٩٣٩) مولى بني أمية - وكان شاعر بلاط صرف - وسنتحدث عنه فيما بعد (ف٥٤). ولم يكن ذا شاعرية ممتازة سواء في قصائده الطوال التي تحدَّث فيها عن الحملات السنوية التي قام بها الناصر أو في مقطَّعاته التي قالها في مدح بني أمية، مثل قوله:

بالمنذر بن محمد شرفت بلاد الأندلس
فالطير فيها ساكن والوحش فيها قد أنس[٣٧]

وبعض أشعار ابن عبد ربه الغزلية تنبئ عن ذوق وحساسية تفوق ما يبدو في مدائحه. وقد جمع أشعاره في ديوان سماه «الممحصات» أتبع فيه كل قطعة غزلية بأخرى في الحكمة أو الزهد؛ حتى يدفع شعر الزهد أوزار الأفكار الدنيوية ومن نسيبه قوله:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله درًّا يعود من الحياء عقيقًا
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه أبصرت وجهك في سناه غريقًا[٣٨]

ومن أحسن ما قال عبد الملك بن جهور - وزير عبد الرحمن الناصر - تلك الأبيات التي قالها في النرجس:

قد بعثنا إليك بالنرجس الغض حكى لون عاشق معمود
فيه ريح الحبيب عند التلاقي واصفرار المحب عند الصدود[٣٩]

ف١٢- ابن هانئ - الزبيدي

عاش محمد بن هانئ الإشبيلي (يكنى أبا القاسم ،وأبا محمد، توفي ٣٦٢/ ٩٧٢) حياة استهتار، وكان «متهمًا بمذهب الفلاسفة. ولما اشتهر عنه ذلك نقم عليه أهل إشبيلية، وساءت المقالة في حق الملك بسببه واتُّهِمَ بمذهبه أيضًا، فأشار الملك عليه بالغيبة عن البلد مدة ينسى فيها خبره، فانفصل عنها وعمره يومئذ سبعة وعشرون عامًا...

وخرج إلى المغرب، ولقي جوهراً القائد مولى المنصور فامتدحه، ثم ارتحل إلى جعفر ويحيى ابني علي - وكانا بالمسيلة وهي مدينة الزاب، وكانا واليها- فبالغا في إكرامه والإحسان إليه. فنمى خبره على المعز أبي تميم معد بن المنصور العبيدي.

ثم توجه المعز إلى الديار المصرية فشيَّعه ابن هانئ ورجع إلى المغرب لأخذ عياله واللحاق به، ولكنه لقي حتفه عند «برقة» على صورة غامضة في سنة ٩٧٢، فمن قائل: إنه لما وصل إلى برقة أضافه شخص من أهلها فأقام عنده أيامًا في مجلس الأنس، فيقال: إنهم عربدوا عليه فقتلوه. وقيل: خرج من تلك الديار وهو سكران فنام في الطريق وأصبح ميتًا، ولم يعرف سبب موته، وقيل إنه وجد في ساقية من سواقي برقة مخنوقًا بتكة سراويلة، وكان ذلك بكرة يوم الأربعاء لسبع ليالٍ بقين من رجب سنة ٣٦٢»[٤٠].

ويرجح ابن الخطيب الرواية الأولى. ويرى ابن خلّكان أن القصيدة النونية التي قالها ابن هانئ في المعز الفاطمي تُعد من «غرر المدائح ونخب الشعر»، ويقول ابن خلّكان : إنه لولا غلوه في المدح وإفراطه المفضي إلى الكفر لكان ديوانه من أحسن الدواوين. «وليس في المغاربة من هو في طبقته - لا من متقدّميهم ولا من متأخريهم - بل هو أشعرهم على الإطلاق، وهو عندهم كالمتنبي عند المشارقة؛

وكانا متعاصرين». أما المعري فقد شبه شعره الرائع الفخم «برحى تطحن قرونًا»، كما قال غرسية غومس. وقصيدته في وصف النجوم مشهورة[٤١].

وعلى الضد من استهتار ابن هانئ نجد الزبيدي (أبا بكر محمد بن الحسن بن عبد الله ٩١٨/٣٠٦ - ٩٨٩/٣٧٩) رجلاً جادًّا. كان مؤدِّبًا للخليفة هشام المؤيد في صباه، فكان الذي علمه الحساب والعربية ونفعه نفعًا كبيرًا، وألَّف في النحو والتاريخ كُتبًا لها قدرها (ف٦٠ و ٦١)، وكان شاعرًا يميل في شعره إلى الحكمة والزهد: فيذكر الخوف من الله، وخلود الروح، وثواب الآخرة وعقابها كقوله:

أبا مسلم إن الفتى بجنانه ومقوله لا بالمراكب واللبس
وليس ثياب المرء تغني قلامة إذا كان مقصورًا على قصر النفس
وليس يفيد العلم والحلم والحجى -أبا مسلم- طول القعود على الكرسي[٤٢]

وله كذلك نسيب يصور آلام بُعد الحبيب على نحو لطيف رقيق.

ف١٣- شعراء المنصور

كان المنصور يرعى أهل الأدب. ولقد أُغْرِمَ زمانًا بالفلسفة، ثم وُجد أن الفقهاء يجدون في هذا ما يثيرون به مشاعر الناس عليه، فأمر بإخراج كتب الفلسفة والفلك من بين غيرها من الكتب من مكتبة القصر وأحرقها بيده أمام نفر من العلماء الموقَّرين كالأصلي وابن ذكوان والزبيدي، ليُظْهِر للناس غيرته على الدين[٤٣]. وقد كان لهذا العمل وقْعٌ طيب في قلوب الناس، غير أننا لا نشك في أن المنصور فعل ذلك وهو راغم، لأن ميله إلى الأدباء - والشعراء خاصة - كان عظيمًا طول حياته.

وقد قال ريبيرا: «إنَّ المنصور أنشأ بين دواوين الدولة ديوانًا خاصًّا سمي «ديوان الندماء» مهمته ترتيب الشعراء طبقات وبذل العطاء لهم على أقدارهم في الشعر،

وكان على رأس هذا الديوان واحد من كبار نقدة الأدب[٤٤]. ولقد صحب المنصور في بعض غزواته أربعون شاعرًا من كل طبقة ؛ ليقولوا الشعر في غزواته».

ومن الطبيعي ألا يخلو رجل من طراز المنصور من أعداء ينفّسون عليه طموحه البعيد وتوفيقه في درك غاياته، ومن ثم كثرت الأشعار في هجائه المقذع. وممن اشتدَّ في هجائه الوزير المصحفي الذي أوقع به[٤٥]، وإبراهيم بن إدريس الحسني الشاعر.

بيد أن المدائح التي قيلت في هذا القائد العظيم ووزير هشام المؤيد الخطير تربو بكثير على ما قيل فيه من هجاء. وممن أكثر في مدحه ابن درّاج القسطلي (من قسطلة في الجوف في البرتغال الحالية ٣٤٧/٩٥٨-٤٢٢/١٠٣٠)، وكان كاتبًا للحكم المستنصر والمنصور - وله مدائح ومراثٍ طيبة، كتلك التي قالها في صبح البشكنسية - ثم خدم بعد ذلك عبد الرحمن بن أبي عامر المعروف بشيخول، ومحمد بن عبد الجبار المهدي، وسليمانَ المستعين، وعليَّ بن حمود الحسن، والمرتضى، وكلهم خلفاء؛ ثم توجه بعد ذلك إلى بلنسية وسَرَقُسْطة؛ حيث تكونت حوله حلقة من الشعراء وأهل الأدب.

وأبياته تنمّ عن ملكة ذهنية فقيرة، وتكلف زائد، وتعقيد يشبه تعقيد جُنْجُرة الشاعر الإسباني. وإيغال أولئك المحدثين وإسرافهم في تقليد القدماء يفسر لنا إقبال الناس على الموشحات الشعبية، التي يعد ظهورها رد فعل لهذا الشعر القديم المجدد[٤٦].

ف ١٤- صاعد البغدادي

كان صاعدٌ البغدادي المتوفى سنة ٤١٧/١٠٢٦ أحدَ كبار شعراء بلاط المنصور. أقبل إلى قرطبة حوالي سنة ٣٨٠/٩٩٠ ميلادية واستطاع أن يحظى بعطف المنصور بسبب تضلُّعه في علوم اللغة والتاريخ، وبسبب ذكائه وطلاوة حديثه وطيب

معاشرته ويديع جوابه وحضوره وبراعته في الارتجال. وقد أكمل ابن بسام هذا الوصف بقوله: إنه كان «ممتعًا محسنًا للسؤال، حاذقًا في استخراج الأموال»[٤٧].

وقد أدخل صاعد إلى الأندلس طريقة جديدة في درس الشعر الجاهلي تتلخص «في أن يقرأ الطالب القصيدة، ثم يسأله الأستاذ عن معاني الألفاظ، فيقوم بالشرح معتمدًا على قائمة من المعاني يكون قد إستخرجها من المعاجم العربية»[٤٨].

وكان أبو علي مبدعًا ذا براعة بالغة في هذا الباب، وكان لا يخرج من شيء في هذا السبيل؛ حتى لقد زعم أنه قرأ جميع الكتب المعروفة. وتحكى المراجع عن جرأته في ذلك الصدد أن نفرًا من خصوم صاعد «سألوا المنصور في تجليد كراريس بياض تزال جدتها؛ حتى توهم القدم، وترجم عليه «كتاب النكت» تأليف أبي الغوث الصنعاني، فترامي إليه صاعد حين رآه وجعل يقبّله وقال: «إي والله ! قرأته بالبلد الفلاني على الشيخ أبي فلان...»، فأخذه المنصور من يده خوفًا من أن يفتحه وقال: «إنْ كنتَ قد قرأته كما تزعم فعلام يحتوي؟» فقال: «وأبيك بَعُد عهدي به ولا أحفظ الآن منه شيئًا، ولكنه يحتوي على لغة منثورة لا يشوبها شعر ولا خبر» فقال له المنصور: «أبَعد الله مثلك، فما رأيت أكذب منك!»، وأمر بإخراجه»[٤٩].

وتصدى صاعد لتأليف كتاب يفوق «الأمالي» لأبي علي القالي، وزعم للمنصور أنه يملي «على كُتّاب دولته كتابًا أرفع منه وأجل لا يورد فيه خبرًا مما أورده أبو علي، فأذن له المنصور في ذلك، وجلس بجامع مدينة الزاهرة يملي كتابَه المترجم «بالفصوص»، فلما أكمله تتبعه أدباء الوقت فلم تمر فيه كلمة صحيحة عندهم ولا خبر ثبت لديهم»، فأمر المنصور بأن يقذف كتاب الفصوص في النهر، فقال بعض الشعراء:

قد غاص في الماء كتاب الفصوص وهكذا كلُّ ثقيل يغوص

فأجابه صاعد :

عـــاد إلى معدنـــه، إنمـــا توجـد في قعـر البحار الفصـوص[٥٠]

ونظر صاعد إلى وردة بيد المنصور في غير وقتها لم يستتم فتح ورقها فقال مرتجلاً:

أتتـك أبـا عامـر وردة يذكـرك المسـك أنفاسَـها
كعـذراء أبصـرها مبصـر فغطـت بأكمامهـا راسـها[٥١]

وتقدم صاعد إلى المنصور يومًا بأيل في قيده، وكتب معه بأبيات متوسطة الجودة جاء في بعضها:

مـولاي، مؤنـس غـربتي، متخطفي مـن ظفـر أيامي، مُمَـنِّع معقلـي
عـبد جَذَبْـتَ بضـبعه ورفعـت مـن مقـداره أهـدي إلـيك بـأيِّل
سميـته غرسـية وبعثـته في حـبله ليُـتاح فـيه تفـاؤلي
لئـن قبلـت فـتلك أنعـم مِـنّة أَسْـدَى بهـا ذو مـنحة وتطـوُّل
صـبحتك غاديـة السـرور وجللـت أرجـاء ربعـك بالسـحاب المخضـل

فقضى الله في سابق علمه أن غرسية بن شانجه (صاحب نبره) من ملوك الروم - وكان أمنع من النجم - أُسر في ذلك اليوم بعينه الذي بعث فيه صاعد بالأيل وسماه غرسية متفائلاً، فزاد حب المنصور لصاعد بسبب هذا التوافق الغريب.

ولم يكن صاعد ليدع فرصة تفلت إلا أظهر للمنصور شكره، ومن ذلك أنه بعث إلى المنصور غلامًا له أسود يُسمَّى كافورًا، وقد ألبسه قميصًا كالمرقعة حاكه من خرق الأكياس والصُّرَر التي كان يقبض فيها صلات المنصور؛ فلما مثل بين يدي المنصور عجب من فعل صاعد بغلامه وسأله في ذلك فقال: «يا مولانا، هنالك الفائدة. اعلم يا مولاي أنك وهبت لي اليوم ملء جلد كافور مالاً» فتهلل وقال:

«لله درك من شاكر مستنبط لغوامض معاني الشكر!!»، وأمر له بمالٍ واسع وكسوة، وكسا كافورًا أحسن كسوة[٥٢].

ف١٥ - الرمادي

وأهم من صاعد - من الناحية الأدبية - يوسف بن هارون الرمادي. والرمادي ليس نسبة إلى بلد يسمى رمادة - كما يحسب البعض - وإنَّما هو الصورة العربية لكنيته بالإسبانية الدارجة وهي: «أبو جنيس»، والجنيس Cenisa في الإسبانية هو الرماد، وترجمة «الرَّمادي» بالإسبانية على هذا El Ceniciento .

وقد اتُّهم الرمادي بالاشتراك في مؤامرة اشترك في تدبيرها على المنصور جماعة من أهل الأدب - ربما كان دافعهم إلى ذلك الحسد له - فحكم المنصور عليه بأن يقاطعه الناس ولا يبادله الكلام منهم أحد. فمضى المسكين يهيم بين الجموع الذين كانت تزخر بهم طرقات قرطبة «وكأنه ميت». ثم عفا عنه المنصور بعد ذلك؛ لأننا نجده بين الشعراء الذين رافقوه في حملته على برشلونة في سنة ٣٧٦ / ٩٨٦ (انظر فقرة ٥٠).

ويحكي ابن حزم عن الرمادي قصة حب رومانتيكي رائعة الجمال، فيقول : إنَّ الشاعر كان مجتازًا عند «باب العطارين» في قرطبة - وهذا الموضع كان مجتمع النساء - فرأى جارية مليحة: «أخذت بمجامع قلبي، وتخلل حبها جميع أعضائي». فتبعها؛ حتى عبرت عن طريق الجامع، وجعل يتبعها وهي ناهضة نحو القنطرة، فجازها إلى الموضع المعروف بالربض، فلما صار بين رياض بني مروان - رحمهم الله - المبنية على قبورهم في مقبرة الربض خلف النهر، نَظَرَتْهُ منفردًا عن الناس لا همَّ له غيرها، فانصرفت إليه فقالت له: «ما لك تمشي ورائي؟» فأخبرها بعظيم بليته بها، فقالت له: «دع عنك هذا ولا تطلب فضيحتي، فلا مطمع لك في ألبتة ولا إلى ما ترغبه سبيل»، فقال: «إني أقنع بالنظر»، فقالت: «ذلك مباح لك»، فقال لها: «يا

سيدتي، أحرّة أم مملوكة؟» فقالت: «مملوكة»، فقال لها: «ما اسمك؟»، قالت: «خلوة»، فقال لها: «ولمن أنت؟»، فقالت: «علمك والله بما في السماء السابعة أقرب إليك مما سألت عنه، فدع المحال»، فقال لها: «يا سيدتي، وأين أراك بعد هذا؟»، فقالت: «حيث رأيتني اليوم، في مثل تلك الساعة من كل جمعة»، ثم قالت له: «إما تنهض أنت وإما أنهض أنا»، فقال لها: «انهضي في حفظ الله»، فنهضت نحو القنطرة. ولم يمكنه اتباعها؛ لأنها كانت تتلفت نحوه لترى أيُسايرها أم لا. فلما تجاوزت باب القنطرة أتى يقفوها، فلم يقع لها على مسألة. قال أبو عمر، وهو يوسف بن هارون: «فوالله لقد لازمت باب العطارين والربض من ذلك الوقت إلى الآن فما وقعتُ لها على خبر، ولا أدري أسماءٌ لحستها أم أرض بلعتها... ؟! إنِ في قلبي منها لأحرّ من الجمر!» وهي «خلوة» التي يتغزل بها في أشعاره، ثم وقع بعد ذلك على خبرها بعد رحيله في سببها في سرقسطة في قصة طويلة[٥٢].

ف-١٦ الوزير أبو المغيرة بن حزم

وكانت للمنصور جارية جميلة مغنية تسمى «أنس القلوب»، وكان ذا غرام بها، غير أنها كانت مولعة بالوزير أبي المغيرة بن حزم. فحدث ذات مرة أن كان المنصور في رياضه الزهرة وفي صحبته أبو المغيرة، فغنّت الجارية:

قدم الليل عند سير النهار ... وبدا البدرُ مثل نصف سوار

فكأنَّ النهارَ صفحةُ خدٍّ ... وكأنَّ الظلامَ خطُّ عذار

وكأنّ الكئوسَ جامدُ ماءٍ ... وكأنّ المُدامَ ذائبُ نار

نظري قد جنى عليَّ ذنوبًا ... كيف مما جنته عيني اعتذاري؟

يا لقومي، تعجبوا من غزال ... جائر في محبتي، وهو جاري!

ليت لو كان لي إليه سبيل ... فأقضّي من حبه أوطاري

قال أبو المغيرة بن حزم: فلما أكملت الغناء أحسست بالمعنى فقلت:

كيف، كيف الوصول للأقمار ... بين سمر القنا وبيض الشفار

لو علمنا بأن حبك حق ... لطلبنا الحياة منك بثار

وإذا ما الكرام همموا بشيء ... خاطروا بالنفوس في الأخطار

قال: فعند ذلك بادر المنصور لحسامه، وغلظ في كلامه وقال لها: «قولي واصدقي إلى من تشيرين بهذا الشوق والحنين؟ فقالت الجارية: «إن كان الكذب أنجى فالصدق أحرى وأولى، والله ما كانت إلا نظرة ولّدت في القلب فكرة، فتكلم الحب عن لساني، وبرح الشوق بكتماني، والعفو مضمون لديك عند المقدرة». ثم بكت فكأن دمعها در تناثر من عقد، أو طل تساقط من ورد؛ وأنشدت:

أذنبت ذنبًا عظيمًا ... فكيف منه اعتذاري؟

والله قدر هذا ... ولم يكن باختياري

العفو أحسن شيء ... يكون عند اقتدار

فلم يلبث المنصور أن عفا عنها وعنه، ووهبه الجارية[٥٤].

وقد نُقش على قبر المنصور في « مدينة سالم» هذا البيتان:

آثاره تنبيك عن أخباره ... حتى كأنك بالعيان تراه

تالله لا يأتي الزمان بمثله ... أبدًا، ولا يحمي الثغور سواه[٥٤]

وهذان بيتان يناقضان مناقضة ظاهرة تلك العبارة التي نقرؤها في «مدونة برغش Chronicon Burgeuse » ونصها: «في سنة ١٠٠٢ توفي المنصور، وألحد في جهنم».

ف١٧ - ابن أبي زمنين - ابن الهندي - حبيب الصقلي

ونذكر ممن ظهر في عصر المنصور كذلك، أو خلال الفترة التي تلته إلى سقوط الخلافة، أبا عبد الله محمد بن أبي زمنين (٣٢٤/٩٣٥-٣٩٨/١٠٠٧ أو ١٠٠٨ م) الذي نبغ في دراسة الفقه وألّف «مدوّنته» المشهورة، وشهرته بتصانيفه في الوعظ والزهد وأخبار الصالحين أكبر.

وقد أجمع الناس على الإعجاب بشعره الذي يغلب عليه طابع الدين وشيء من التشاؤم؛ وإليك نموذجًا من هذا الشعر صاغه في قالب أسئلة، وهو طراز شائع معروف:

الموت في كل حين ينشر الكفنا ... ونحن في غفلة عما يراد بنا

لا تطمئنّ إلى الدنيا وبهجتها ... وإن توشحت من أثوابها الحسنا

أين الأحبة والجيران؟ ما فعلوا؟ ... أين الذين هم كانوا لنا سكنا؟

سقاهم الدهر كاسًا غير صافية ... فصيرتهم لأطباق الثرى رهنا[٥٤]

وظهر في ذلك العصر أيضًا فقيه شاعر آخر هو أحمد بن سعيد الهمداني، ويعرف بابن الهندي (٣٢٠/٩٣٢ - ٣٩٩/١٠٠٨) وكان متمكنًا من أساليب تحرير الوثائق، وقد ألّف فيها كتابًا عرف «بالديوان» «شحنه بالأخبار والحكم والأمثال والنوادر والشعر والفوائد والحجج، فأتى «الديوان» كبيرًا، واخترع في علم الوثائق فنونًا وألفاظًا وفصولاً وعُقدًا عجيبة»، («صلة» ابن بشكوال، رقم ١٩) وقد طبقت شهرته آفاق الأندلس بهذا الكتاب.

وكان أبو الوليد (ويكنى أيضًا أبا محمد) عبد الله بن محمد بن نصر الأزدي القرطبي المعروف بابن الفرضي (٣٥١/٩٦٢ - ٤٠٤/١٠١٣) المؤرخ (انظر فقرة ٨٤) يقول شعرًا لطيفًا يستلهم فيه عاطفته الدينية الغالبة عليه، كهذه الأبيات:

أسيرُ الخطايا عند بابك واقف ... على وجل مما به أنت عارف
يخاف ذنوبًا لم يغب عنك غيبها ... ويرجوك فيها فهو راجٍ وخائف
ومن ذا الذي يُرجى سواك ويُتّقى ... وما لك في فصل القضاة مخالف
فيا سيدي لا تُخزِني في صحيفتي ... إذا نشرت يوم الحساب الصحائف
وكن مؤنسي في ظلمة القبر عندما ... يصد ذوو القربى ويجفو المؤالف
لئن ضاق عنّي عفوك الواسع الذي ... أرجّى لإسرافي فإنّي لتالف[٥٧]

وحتى «الصقالبة» كانوا يقولون الشعر، وهم طائفة لعبت في ميدان السياسة أدوارًا خطيرة في فترات معينة، نبغ من بينهم شعراء مثل حبيب الصقلبي، وكان من صقالبة هشام المؤيد، وكان أديبًا ذكيًّا حذرًا ألّف كتابًا في فضائل الصقالبة جمع فيه الكثير من شعرهم؛ وقد ضاع هذا الكتاب[٥٨].

ف ١٨ - شعراء المروانيين

كان أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن الناصر (٣٥٢/٩٦٣ - ٤٠٠/١٠٠٩) من أظهر شعراء عصر الخلافة، وكان حفيدًا لعبد الرحمن الناصر، ولقّب «بالشريف الطليق». «وكان فيما قيل يهوى جارية رباها أبوه معه وذكرها له، ثم إنه استأثر بها، فاشتدت غيرة مروان لذلك وانتضى سيفًا وانتهز فرصة في بعض خلوات أبيه معها فقتله، وعُثر على القصة فسجن وهو ابن ست عشرة سنة، ومكث في السجن ست عشرة سنة، وعاش بعد إطلاقة ست عشرة سنة، وهذا نادر الاتفاق، ومات قريبًا من سنة ٤٠٠»[٥٩]، وعرف في سجنه ابن مسعود، وكان شاعرًا كذلك. وقد جمع غرسية غومس «ديوان» شعره، وأجمل ما فيه قافيّته التي تتقسم أربعة أقسام: النسيب، والخمرية، والوصف، والفخر. ووصفه العاصفة فيها بديع رائع: ومنها:

غمــــام هطـــــــل شــــــؤبوبه نــــادم الــــروض، فغـــنى وســــقي

فكــــأن الأرض مــــــنه مطــــبق وكـــأن النصـــب جـــان أطـــبقا

خلــــع الــــبرق عــــلى أرجائــــه ثــوبَ وَشْــــى مــــنه لمــــا بـــرقا

وكـــأن العــــارض الجُــــونَ بــــه ادهــــم خلّــــي علــــيه بلقَــــا

وبرع «الشريف الطليق» كذلك في مقطّعات النسيب الرقيق، وكان طليعة شعراء الأندلس في الزهريات التي بلغ شعراء الأندلس فيها إلى شأو بعيد على يد ابن خفاجة[٦٠].

وكان سليمان المستعين - الخليفة الأموي الذي وُلّي الخلافة مرتين (من ربيع الأول سنة ٤٠٠. إلى شوال سنة ٤٠٠، ومن شوال سنة ٤٠٣ إلى المحرم سنة ٤٠٧هـ) وتوفي عام ٤٠٧/١٠١٦ - يقول شعرًا حسنًا عارض في بعضه أبياتًا لهارون الرشيد في موضع «الآنسات الثلاث»، وقد كان لهذا الموضوع صدى بعيد في الموسيقى الأندلسية (ف ١٧٤)[٦١].

وكان عبد الرحمن الخامس المستظهر (توفي عام ٤٠٠/١٠٠٩) - الذي لم يمكث على العرش إلا بضعة أسابيع - يرتجل أشعارًا حسنة، وقد ربطته بابن حزم صداقة صميمة[٦٢].

بل كان الشعر في الأندلس يجري على ألسن النساء، فبرع فيه منهن نفرٌ نذكر منهن عائشة بنت أحمد، التي عشقت أحد أبناء المنصور وتولعت به، ومريم بنت أبي يعقوب الفيصولي، وكانت زاهدة ورعة واسعة العلم والأدب، وحفصة وأم العلاء الحجاريتين، وغيرهن كثيرات[٦٣].

ومن أظهر شعراء هذا العصر وكُتّابه أبو عامر بن شهيد (٣٨٢/ ٩٩٢- ٤٢٧/ ١٠٣٥)، وقد أوجز غرسية غومس الكلام عنه بقوله: «إنَّ ابن شهيد الشاعر الناقد

ليمثل في نظرنا رجل الفكر الصرف. لقد كان من بيت عريق فلم يصبح الأدب في يده خدمة بل سيادة، وتتراءى لنا في شعره بين الفينة والفينة لمحات ذات وقع حديث، وأما عن جانبه النقدي فقد خلّف لنا «رسالة» صور فيها رحلة الشاعر إلى الجنة، سابقًا بذلك المعرّي ودانتي إلى ذلك الموضوع. وتعرّض للأذى من ملوك الطوائف، وألمّ به بعد ذلك داء عضال عاني مرارته في صبر المتصوف ورضاه، ووُري التراب في مقبرة «الخير» في حدائق قرطبة، فرقد رقدة الأبد تحت الزهور».[٩٤]

ومن بديع شعره قطعته البالغة الجمال المسماة «بعد ليلة أنس»، ومنها هذه الأبيات:

ولما تمدد من سكره ونام ونامت عيون العسس
دنوت إليه على قربه دنوّ رفيق إذا ما التمس
أدبّ إليه دبيب الكرى وأسمو إليه سُموّ النفس
أُقَبِّلُ منه بياضَ الطلى وأرشف منه سواد اللعَس
فبتُّ به ليلتي ناعمًا إلى أن تبسّم ثغر الفَلَس[٦٥]

وبيتاه اللذان يصف فيهما «العاصفة»:

وقد فغرت فاها دجًى كلُّ زهرة إلى كلّ ضرع للغمامة حافل
ومرت جيوش المزن رهوًا كأنها عساكر زنج مذهبات المناصل[٦٦]

ف١٩-أبو محمد على بن حزم القرطبي، جانبه الشعري

وربما كان أهم شعراء الأندلس الذين عاشوا في فترة انهيار الخلافة ابن حزم القرطبي، المكثر في كل ناحية من نواحي الفكر والآداب (انظر ف٦٩).

ونجد أكبر مجموعة من شعره في «كتاب طوق الحمامة في الألفة والألاف»،

وهو دراسة نفسية للحب (انظر فقرة ٦٦) الذي كتبه حوالي سنة ١٠٢٠/٤١١.

وقد اعتبر غرسية غومس حياته «رمزًا على أحوال الأندلس على أيامه. كان شابًّا أنيقًا ينتسب إلى بيت رفيع من موالي بني أمية، دخل ميدان السياسة وهو بعدُ في مطالع الشباب، ثم عاني أوصاب النفي واشترك في المؤامرات والتدبيرات فيما بعد، ثم أصبح آخر الأمر مُفكِّرًا عضب اللسان، وجوَّاب آفاق ينازل العلماء والفقهاء، ويتحدى بجدله العنيف آراء وعقائد متأصلة في الفقه والفلسفة والدين؛ حتى لقد سمى نفسه في أحد كتبه «رجلاً جدليًّا» بل جدليًّا جوَّالاً؛ حتى ليصدق عليه قوله:

لم تستقرَّ به دار ولا وطن ... ولا تدفَّأ منه قطُّ مضجعُه

كأنما صيغ من زَهْو السحاب فما ... تزال ريح إلى الآفاق تدفعه[٦٧]

ونجد أكبر مجموعة من شعره مضمنة في تضاعيف كتابه المسمى «طوق الحمامة» (ف٧٤) وقد ألَّفه سنة ١٠٢٠/٤١٠، ومقامه في الأندلس مقام كتاب «الحياة الجديدة Vita Nova» لدانتي في إيطاليا، وهو طاقة زهر أريجة من الأقاصيص ومقطعات الشعر والتحليل النفسي الخلقي للحب.

ويبدو أنَّ ابن حزم قال الشعر وهو بعدُ صبيٌّ، وكان قد درس البلاغة في شبابه على أساتذة عديدين. وكانت له قريحة طيبة تعينه على الارتجال دون تكلف، وبين أيدينا نموذج من ارتجاله وهو قصيدة رثاء قالها في صديق له وافاه الأجل[٦٨].

وكان ابن حزم يأخذ على الكثيرين من معاصريه الصنعة التي كانوا ينظمون بها شعرهم، وقد سَخِرَ من الدموع الغزار التي يذرفونها «على ديار الحبيبة أو خيامها التي خلَّفتها»، ويرى أن الكلام الذي أكثر الشعراء منه في وصف بهجة الوصل لا يطابق الواقع إلا في قليل.

ولم يسرف ابن حزم في استعمال المجازات والتشبيهات وأضرُب البلاغة - كما كان غيره يفعل - ولم يقع في المبالغات العاطفية أو قعاقع الألفاظ إلا قليلاً، وشعره لهذا كله طبيعي، واضح، يصف أحوال النفس على فطرتها، وهو يصف ما شهده وأحس به إحساسًا عميقًا في أسلوب جزل لطيف، وشعره ينم تارة عن عاطفة حارة مشبوبة كقوله:

وددت بأن القلب شق بمديةٍ ... وأُدخلت فيه، ثم أُطبق في صدري

فأصبحتِ فيه لا تحلين غيرَه ... إلى مقتضَى يوم القيامة والحشر

تعيشين فيه ما حييتُ، فإن أمت ... سكنتِ شغاف القلب في ظُلَم القبر[٦٩]

وتارة أخرى يحلق عند قمم التجريد الذهني، وهو أمر غير مألوف في الشعر الأندلسي، كقوله:

أمن عالم الأملاك أنت أم انسيّ ... أبنْ لي، فقد أزرى بتمييزيَ العيُّ

أرى هيئة إنسية، غير أنه ... إذا أعمل التفكير فالجرم علويُّ

تبارك من سوّى مذاهب خلقه ... على أنك النور الأنيق الطبيعيُّ

ولا شك عندي أنك الروح ساقه ... إلينا مثال في النفوس اتصاليُّ

عَدِمنا دليلاً في حدوثك شاهداً ... نقيس عليه، غير أنك مرئيُّ

ولولا وقوع العين في الكون لم نقل ... سوى أنك العقل الرفيع الحقيقيُّ

وقد ختم غرسية غومس كلامه عن ابن حزم بقوله: «ولقد كان إسبانيًا خالصًا، وهذا قوله يدل عليه:

ويا جوهر الصين: سحقًا! فقد ... غَنِيتُ بياقوتة الأندلس»[٧٠]

[ولما كان شعر ابن حزم يرد في سياق كتابه عن الحب، فإن لهجته

وموضوعاته تطابق المواد المختلفة التي عالجها في ذلك الكتاب، من بدء الحب وتطوره؛ حتى خمود ناره وتلاشيه، وهو يتحدث عن سطان الهوى واستبداداه وغرائبه وشكوكه وآلامه وضحاياه، ويتحدث عما يعرض للمحبين من الغدر وعدم الثقة والسلوّ والخداع، ويتغنى بجمال المرأة -المحبوبة خاصة - وبحلاوة العتاب، ويصف سوء العاذل المترقب للمحبين، ويتحدث عما يكون بين العاشقين من خصام وصلح وتواعد على اللقاء، وما يرونه من أحلام، وما يطرأ عليهم من السلوّ: أي أنه يعرض لكل الحالات العاطفية المتباينة التي يعرفها أهل الهوى[٧٢].

وإليك نماذج من شعره في ذلك الكتاب ننقلها عن «الطوق» كما نشره بتروف:

طاف الخيالُ على مستهترٍ كَلِفٍ ... لولا ارتقابُ مزار الطيف لم ينم

لا تعجبوا إذ سرى والليل معتكر ... فنوره مرهب في الأرض للظلم[٧٣]

يبكي لميت مات وهو مكرم ... وللحي أولى بالدموع الذوارف

فيا عجبًا من آسف لأمرئٍ ثوى ... وما هو للمقتول ظلمًا بآسف[٧٤]

ف٢٠-خصائص الشعر الأندلسي في عصر الطوائف

قال غرسية غومس في تحليل الإنتاج الأدبي لهذا العصر وبيان خصائصه: «كانت قرطبة الأموية ــ متلقي أجناس الشرق والغرب وموضع امتزاج بعضها ببعض ــ مركز توازن قلق. وعندما انهار صرح خلافتها انتثر عقد بلادها وتفرقت أيدي سبا، وقام على أنقاضها رؤساء طوائف العرب الصغار، وأمراء الجماعات البربرية، وفتيان صقالبة القصور»، وزالت مع ذلك التفرق القوة المواجهة للسياسة الأندلسية العامة، واختفى ما هو أخطر من ذلك وهو المثل الإسباني الأعلى.

وإذا نحن نظرنا إلى التاريخ الأندلسي وما تعاوره من أحداث، لرأينا أنه بينما

عمل بنو أمية على تحويل الأندلس إلى قطر غربي ووفّقوا في ذلك، اجتهد ملوك الطوائف في رد قرطبة الغربية إلى المشرق ثانية، فتحولت عواصمه إلى بغدادات صغيرة كثيرة، ولنضف إلى ذلك أن الظروف العامة كانت قد تغيرت تغيرًا حاسمًا حول الأندلس الإسلامي: فقد استيقظت إسبانيا النصرانية ومدت يدها إلى أوربا: كان ذلك في عصر «السِّيد القمبيطور». ثم إن أهل المغرب - فيما يلي الزقاق - نظموا أمورهم في صحرائهم وأقاموا لأنفسهم دولة. وبين ناري النصارى في الشمال والبربر في الجنوب وقف ملوك الطوائف وقد وهن أمرهم وأضعفهم الترف والبذخ، لا يكاد سلطان أحد منهم يتخطى حدود بلده، فكانت دويلاتهم أشبه بجمهوريات إيطالية في ثياب شرقية: وسادت ذلك العصر كله روح البذخ المسرف والإجرام السافر، ومن المطامع والنزوات، ومن الخناجر والسموم.

ومن هنا كان هذا الزمان عصرًا عظيمًا للشعر والشعراء، وتنافس ملوك الطوائف في اجتذاب الشعراء إلى نواحيهم، «ولم تزل الشعراء تتهادى بينهم تهادي النواسم بين الرياض، وتفتك في أموالهم فتكة البراض؛ حتى إن أحد شعرائهم بلغ به ما رآه من منافستهم في أمداحه أن حلف ألا يمدح أحدًا منهم بقصيدة إلا بمائة دينار»... كما قال الشقندي»[٧٥].

«وكان لكل أمير من أمراء الطوائف ميزة اختص بها دون جيرانه: فامتاز المتوكل صاحب بطليوس بالعلم الغزير، وامتاز ابن ذي النون صاحب طليطلة بالبذخ البالغ، وفاق ابن رزين صاحب السهلة أنداده في الموسيقى، واختص المقتدر بن هود صاحب سرقسطة بالعلوم، وبدَّ ابن طاهر صاحب مرسية أقرانه النثر الجميل المسجوع، أما الشعر فكان أمرًا مشتركًا بينهم جميعًا يلقى منهم كل رعاية، ولكن عناية بني عباد أصحاب إشبيلية الجميلة به كانت أعظم وأشمل.

وفي أثناء ذلك كله كانت قرطبة النبيلة تحتضر، وكان البربر أصحاب

السلطان في جنوبي الأندلس قد عقدوا الخناصر مع اليهود ووفود العناصر المشرقية على الأندلس، وانصرف نفر من أهل الأدب إلى تأليف مجموعات جيد الكلام من نظم ونثر، كالذي فعله أبو الوليد الحميري (توفي حوالي ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) من تأليف كتابه «البديع في وشي الربيع»، ومضى الناس في نظم الموشحات، ولكن أكثر ما انصرفت إليه الملكات هو قرض شعر حديث على طريقة القدماء، ولدينا من ثمار قرائحهم آلاف من الأبيات؛ لقد أصبح أهل الأندلس كلهم شعراء! حتى قال القزويني: إن أي فلاح يحرث بأثوار في شلب يرتجل ما شئت من الأشعار فيما شئت من الموضوعات.

ومضى الشعراء يقطعون الأندلس طولاً وعرضًا، ينتجعون قصور الأمراء، حيث يظفرون بالمأوى والصلات، ويحضرون مجالس أصحاب الأمر، وتدرج أسماؤهم في سجلات الدواوين، وتخلع عليهم وظائف التدريس.

ولقد كان الواحد منهم يرتجل المقطوعة القصيرة فيبلغ بها الوزارة. ولما اشتد عليهم الطلب وتوالى عليهم إلحاح الأمراء رفعوا أسعار أشعارهم، حتى حلف واحد منهم لا يمدح أميرًا بأقل من مائة دينار.

وأدرك اليأس نفرًا منهم فانصرفوا عن الشعر وعادوا إلى أريافهم وإلى ما كانوا يزاولونه قبل احترافهم الشعر من أعمال.

وكان كبار القوم - من ملوك ووزراء وأصحاب وظائف كبرى وسفراء - لا يتراسلون إلا شعرًا، فكانوا يتهادون بطاقات صغيرة تحمل عبارات الدعوات والاعتذارات والأهاجي، أو يرفقونها بهداياهم، أو يسجلون فيها لمحات من حياتهم، كلها منظومة شعرًا يشبهون أنفسهم فيه بالنجوم والزهور؛ أصبحت حياتهم كلها شعرًا صرفًا! معظم هذا الشعر متكلف زائف، ولكنه يضم بين الحين والحين لمحات تصور أخلد العواطف الإنسانية[٧٦]

٢ـ عصر الطوائف

(أ) قرطبة: الوزير ابن جهور - ابن زيدون وولادة.

(ب) إشبيلية: المعتضد -المعتمد بن عباد-شعراء بلاط المعتمد بن عباد- ابن حمديس الصقلي - شعر المعتمد في أيام سعده وأيام إدبار حظه -شهرة الملك الشاعر.

(حـ) غرناطة: أبو الفتوح الجرجاني -أبو إسحاق الإلبيري.

(د) المرية: الوزير ابن عباس -المعتصم بن صمادح وشعراء بلاطه -آل المعتصم.

(هـ) بلنسية ومرسية: ابن وهبون -ابن لبون الوادي آشي -الوقشي.

(و) بطليوس: المظفر بن الأفطس - ابن عبدون وشارح شعره ابن بدرون.

(ز) سرقسطة: ابن باجة.

(أ) قرطبة

ف٢١ - أبو الوليد أحمد بن زيدون

استولى الوزير أبو الحزم بن جهور على أعنة الحكم في قاعدة خلفاء بني أمية بعد زوال ملكهم. وقد أنشد الأبيات التالية في خراب «قصور الأمويين التي تقوضت أبنيتها، وعوضت من آنيسها بالوحش أفنيتها»:

قلت يومًا لدار قوم تفانوا ... أين سكانك العزاز علينا؟

فأجابت: هنا أقاموا قليلاً ... ثم ساروا؛ ولست أعلم أينا[٧٧]

أهم شعراء قرطبة [في ذلك العصر] أبو الوليد أحمد بن زيدون المخزومي (٣٩٤/ ١٠٠٣-٤٦٣/١٠٧٠). تمتع ابن زيدون بمكانة عالية في المجتمع القرطبي بفضل ما أنفق في تعليمه من عناية، وما وهبه الله من ملكة طيبة. وقد تجلّت شاعريته وسنه تقارب العشرين، وذلك أنه عندما توفى القاضي الفقيه ابن ذكوان القى ابن زيدون على قبره مرثية بليغة. وفي خلال فترة الاضطراب السياسي الذي سبق سقوط الخلافة، يبدو أن ابن زيدون أخذ جانب أبي الحزم بن جهور.

ثم لم تلبث العلائق أن اتصلت بين ابن زيدون وولاّدة، وكانت سليلة بيت ملك إذ أنها بنت الخليفة الأموي محمد بن عبيد الله بن الناصر لدين الله الملقب بالمستكفي بالله، فلما مات أبوها نزعت عن الحريم وخرجت إلى مجامع الأدباء والعلماء.

ويذكر ابن بسام أن ولاّدة «كانت في نساء أهل زمانها واحدة أقرانها حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر. وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفِنَاؤُها ملعبًا لجياد النظم والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غريتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها، على سهولة

حجابها، وكثرة منتابها. تخلط ذلك بعلو نصاب، وكرم أنساب، وطهارة أثواب. على أنها -سمح الله لها، وتغمد زللها- اطّرحت التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل، بقلة مبالاتها، ومجاهرتها بلذاتها. كتبت -زعموا- على أحد عاتقي ثوبها:

أنـــا واللـــه أصـــلح لـــلمعالي وأمشـــي مشـــيتي وأتـــيه تـــيها

وكتبت على الآخر:

وأمكـــن عاشـــقي مـــن صـــحن خـــدي وأعطـــي قـــبلتي مـــن يشـــتهيها

هكذا وجدت هذا الخبر، وأبرأ إلى الله من عهدة ناقليه، وإلى الأدب من غلط النقل إن كان وقع فيه»(٧٨).

غير أن المقري يقول- بعد أن يروي هذه الفقرة- إنها «كانت مع ذلك مشهورة بالصيانة والعفاف»(٧٩)، وهذا الكلام يناقض ما نعرفه في بعض ما بقي من شعر ولادة من فحش وقلة توقر.

ثم توثقت العلاقات بينها وبين ابن زيدون، فكتبت إليه ذات مرة مجيبة إياه إلى اللقاء بعد طول إلحاحه:

ترقّـــب إذا جـــنّ الظـــلام زيـــارتي فـــإنّي رأيـــت الـــليل أكـــتم للســـر

وَبي منك ما لو كانَ بالشمسِ لم تلح وبالـبدر لم يطلـع وَبالـنجم لم يسـرِ(٨٠)

وقلّد ابن زيدون أبا الطيب في أسلوبه، فقال في بعض شعره في ولادة:

تـه أحـتمِل وَاسـتَطِل أَصـبِرُ وَعِـزَّ أَهُـن وَوَلِّ أُقـبِل وَقُـل أَسمَـع وَمُـر أُطِـعِ(٨١)

بيد أنَّ السر لم يلبث أن ذاع أمره، وأحس الحبيبان أن هواهما في خطر. ثم إن ابن زيدون «ترك غصنًا مثمرًا بجماله وجنح لغصن لم يثمر»، كما يقول ابن بسام

obeikandl.com

(مشيرًا إلى تعلق ابن زيدون بجارية سوداء لولادة)، فبدأ قلب ولادة يتحول عن ابن زيدون.

ولقيت هي في ذلك الحين أبا عامر بن عبدوس، وكان كلفًا بها يطمع في أن يظفر بودها، غير أنه كان رجلاً جاهلاً لا ذكاء فيه ولا علم عنده، وكان إلى جانب ذلك مغترًا بنفسه يحاول جهده أن يغطي جهله بماله العريض، وقد استطاع بفضل هذا المال أن يصبح من وزراء أبي الحزم بن جهور - لمستبد بأمور قرطبة في ذلك الحين - واجتذب ولادة ناحيته، فثارت حفيظة ابن زيدون، وجعل دأبه السخر من أبي عامر بن عبدوس، وكتب إليه خطابًا على لسان ولادة أفرغ فيه تبحره الواسع في الأدب وتمكنه من اللغة، فاشتهر أمر هذه الرسالة في قرطبة وتناقلها الناس من ذلك الحين واعتبروها غرة من أورع غرر الأدب العربي، بدأها بقوله: «أما بعد، أيها المصاب بعقله، المورَّط بجهله، البين سقطه، الفاحش غلطه، العاثر في ذيل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره، الساقط سقوط الذباب على الشراب، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب، فإن العُجْب أكذب، ومعرفة المرء نفسه أصوب (٨٢). وإنك راسلتني مستهديًا من صلتي ما صَفِرتَ منه أيدي أمثالك، متصديًا من خُلّتي لما قُرِعت دونه أنوف أشكالك، مرسلاً خليلتك مرتادة، مستعملاً عشيقتك قوادة، كاذبًا نفسك أنك ستنزل عنها إليّ، وتَخلفُ بعدها عليَّ.

ولست بأول ذي همة ... دعته لما ليس بالنائل

وقد أفحش ابن زيدون في هجاء ابن عبدوس في هذه الرسالة، إلى درجة نفّرت ولادة من شاعرنا وجعلتها تبدله من المحبة بغضًا شديدًا. ولم يزل ابن عبدوس يدبر له ويثير عليه خصومه؛ حتى جعلهم يدبرون له تهمة تبديد أموال كان قد اؤتمن عليها، فزج به في السجن، وجعل يرسل رسائل الاستعطاف من محبسه إلى أبي الحزم بن جهور وابنه أبي الوليد - وكان هذا الأخير صديقًا للشاعر - فلم يسعفه

واحد منهما، فمضى يكتب على أصحابه دون جدوى؛ ولم ينسَ مع ذلك ولادة. فلما تقاعس الناس كلهم عن إسعافه تبين «أن العاجز من لا يستبد، والمرء يعجز لا المحالة. ولم أستَجِزْ أن أكون ثالث الأذلّين: العبر والوتد، وذكرت أن القرار من الظلم والهرب مما لا يطاق من سنن المسلمين»[٨٣]، ومن ثم قرر الهرب، ودبر حيلة أفلت بها من المحبس، وربما كان أبو الوليد بن جهور قد أعانه على ذلك.

قضى ابن زيدون بعد هربه فترة من الزمن شريدًا في أحواز قرطبة، مؤملاً أن يستطيع رؤية ولادة، ثم أرسل إليها «بنونيته» المشهورة يتشوق فيها إليها ويدعوها إلى اللحاق به. وقد قال فيها غرسية غومس: «إنها أجمل قصيدة حب نظمها الأندلسيون المسلمون، وغرة من أبدع غرر الأدب العربي كله، عارضها ناس كثيرون ولا زالوا يعارضونها إلى اليوم».

وإليك أبياتًا منها:

بنتم وبِنّا، فما ابتلت جوانحنا ... شوقًا إليكم، ولا جفّت مآقينا

نكاد -حين تناجيكم ضمائرنا- ... يقضي علينا الأسى، لولا تأسّينا

حالت لفقدكم أيامنا، ففدت ... سودًا وكانت -بكم- بيضًا لياليا

إذ جانب العيش طلق من تألّفنا ... ومورد اللهو صافٍ من تصافينا

وإذ هصرنا غصون الأنس دانيةً ... قطوفها، فدنينا منه ما شينا

ليُسقَ عهدكم، عهد السرور، فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

من مبلغ الملبسينا بانتزاحهمُ ... حزنًا مع الدهر لا يبلى ويبلينا

أن الزمان -الذي ما زال يضحكنا ... أنسًا بقربكم- قد عاد يبكينا

غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا ... بأن نغَصَّ، فقال الدهر: آمينا

فانحلّ ما كان معقودًا بأنفسنا ... وانبتّ ما كان موصولاً بأيدينا
وقد نكون وما يُخشى تفرُّقنا ... فاليومَ نحن وما يُرجَى تلاقينا
يا ساريَ البرقِ غادِ القصرَ فاسْقِ به ... من كان صرفَ الهوى والود يسقينا
ويا نسيم الصبا بلّغ تحيتنا ... من لو على البعد حيًّا كان يحيينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا ... إن طالما غير النأي المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً ... منكم، ولا انصرفت عنكم أمانينا
يا روضة طالما أجنت لواحظنا ... وردًا جناه الصبا غضًّا ونسرينا
ويا حياة تملّينا بزهرتها ... مُنًى ضروبًا ولذّاتٍ أفانينا
لسنا نسميك، إجلالاً وتكرمة ... فقدرك المعتلي عن ذاك يغنينا
إذا انفردت فما شوركت في صفة ... فحسبك الوصف إيضاحًا وتبيينا
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا ... والسعد قد غضّ من أجفان واشينا
سرّان في خاطر الظلماء يكتمنا ... حتى يكاد لسان الصبح يفشينا
يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها ... والكوثر العذب زقومًا وغسلينا
إنا قرأنا الأسى يوم النوى سورًا ... مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا

ولم تجبه ولادة إلى ما طلب، فمضى «يستضيء بنور محياها في الليل البهيم»، كما يقول ابن خاقان[٨٤]. ثم شفع له أبو الوليد بن جهور عند أبيه حتى عفا عنه، فعاد إلى قرطبة ومضى يقرض المدائح في أبي الحزم بن جهور وآله، تحدث في بعضها بما فعله أبو الحزم من تحريمه الخمر في قرطبة وأمره بكسر أوانيها، وعندما توفي أبو الحزم في سنة ٤٣٥/١٠٤٣ قال فيه طائفة من المراثي[٨٥]، ورثى كذلك زوج أبي الحزم التي توفيت بعده بقليل[٨٦].

أما ولادة فليس لدينا من أخبارها ما يدل على أنه كانت لها بعد ذلك صلة بابن

obeikandl.com

زيدون، ويبدو أنها انزوت عن الناس مقتصرة على صلتها بابن عبدوس، حتى أدركتها المنية في سن عالية[٨٧].

وقد دخل ابن زيدون بعد ذلك في خدمة أبي الوليد بن جهور، الذي خلف أباه في حكومة قرطبة: فاصطنع ابن زيدون «وأوسع راتبه وجلله كرامة لم تقنعه، فيما زعموا». ثم بعثه رسولاً إلى إدريس أمير مالقة، «فأطال الثواء هنالك، واقترب من إدريس، وخف نفسه، وأحضره مجالس أنسه، فعتب عليه ابن جهور وصرفه عن ذلك التصرف قبل قفوله، ثم عاد إلى جميل رأيه فيه، وصرفه في السفارة بينه وبين رؤساء الأندلس»؛ فذهب إلى بلنسية وبطليوس، واستقر به المطاف آخر الأمر في إشبيلية؛ حتى وجد الميدان فسيحًا لمطامحه، إذ أحسن المعتضدَ بن عباد لقاءه أملاً في الانتفاع به. وقد قال فيه ابن زيدون قصيدة من روائع شعره، وبلغ من إقبال المعتضد على ابن زيدون أن أقامه وزيرًا له.

وكان المعتضد مجتهدًا في القضاء على جيرانه البربر؛ حتى استولى على بلادهم واحدة بعد الأخرى، وسمت همته إلى توحيد بلاد المسلمين في الأندلس تحت رايته، وتشبه بأمراء المشرق في تقدير الشعر وإعلاء شأن أهله. وقد أشاد ابن زيدون بالأعمال الحربية التي قام بها المعتضد، خلال فترة اجتهاده في توسيع رقعة مملكة إشبيلية.

وعندما توفي المعتضد، استطاع ابن زيدون أن يحتل من ابنه المعتمد نفس المكانة التي كانت له عند أبيه، وصار من خواصه وصحابته، يجالسه في خلواته، ويسفُر له في مهم رسائله على حال من التوسعة، وكان ذهابه إلى ابن عباد سنة ٤٤١. وقد بلغ تلك المكانة على رغم سعايات الحاسدين له من الحاشية (وخاصة ابن مرتين وابن عمار اللذين عملا على إبعاده).

وكان المعتمد قد انتقل إلى قرطبة بعد استيلائه عليها، فاصطحب ابن زيدون معه، فعاد إلى بلده وأهله وعلت مكانته عند ابن عباد، فزاد حسد الحاسدين له. وحدث بعد ذلك أن وقعت فتنة بإشبيلية، بسبب رجل يهودي بطش به مسلم، فثار له أهل ملته وتفاقم الأمر، فعجّل المعتمد بإرسال نفر من كبار رجال دولته إلى إشبيلية لتلافي الفتنة، وأنفذ معهم ابن زيدون، فخرج «على بقية وعك كان متألمًا منه» ثم أتبعه المعتمد بابنه، «فتحدث الناس بنبوّ مكان الأديب ابن زيدون عند السلطان». واستقر بابن زيدون وجعه «إلى أن قضى نحبه، وهلك بدار هجرته إشبيلية صدر رجب سنة ٦٣» (١٥رجب ٤٦٣/١٧- ١٨أبريل ١٠٧٠م)[٨٨].

ويضع ابن بسام، ومن جاء بعده، آثار ابن زيدون في أربعة أبواب، هي: المدائح، والرسائل، والمراثي، والغزل أو النسيب، وهذه الأضرب الأربعة من القصائد معروفة متواترة عند القدماء، وبالإضافة إلى هذه نظم ابن زيدون بعض شعره في بحر الرجز، وخلف تخميسين؛ والتخميس لون من الشعر يتكون من فقرات كل منها خمسة مصاريع، الأربعة الأولى منها على قافية واحدة، والخامس على قافية أخرى يلتزمها الشاعر في المصراع الخامس من كل فقرة في قصديته كلها. وقد استعمل ابن زيدون هذه الضروب الشعرية في غزلياته التي صاغها في شبابه، وفي مدح ممدوحيه ورثائهم حين صار شاعر بلاط[٨٩].

ويلقب ابن زيدون بتيبولوس[٩٠] الأندلس، لما بين حياته وما جرى عليه من الحوادث وما عبر بذلك الشاعر اللاتيني من تشابه. بيد أننا لا نستطيع أن نقارن بين هذين الرجلين، فقد عاشا في عالمين مختلفين؛ ثم إن تهور ابن زيدون وعنفه لا يمكن أن يقارنا بحلاوة تيبولس ورقته.

وربما كان ابن زيدون قد استوحى فنه من المتنبي الشاعر العربي طائر الصيت، فقد كان يقلده في أساليبه وأخيلته تقليدًا، وهو لهذا «شاعر من طبقة

الفحول القدماء وطابعهم، وكان شعره لهذا جديرًا بأن يُتخذ مثلاً يحتذيه من جاء بعده من الشعراء»، كما يقول أوجست كور. وقد ذهب إلى هذا الرأي كذلك أبو على بن رشيق القيرواني ومحمد بن صاره الشنتريني وأحمد المقري.

وقد أوحت حياة ابن زيدون وقصته مع ولادة إلى كاتب مسرحية محدث فكرة قصة مسرحية في ستة فصول طبعت في القاهرة في سنة ١٣٤٧/ ١٩٨٢[٩١].

obeikandl.com

(ب) إشبيلية

ف٢٢- المعتضد بن عباد

تمكن القاضي أبو القاسم محمد بن عباد (المتوفى سنة ١٠٤٢/٤٣٤) من القبض على نواصي الحكم في إشبيلية قبيل انتثار عقد خلافة بني أمية، وخلفه ابنه عباد الذي تلقب بالمعتضد (١٠١٢/٤٠٣- ١٠٦٩/٤٦٢).

وقد كان ذا مزاج متناقض غريب، يجمع بين الدهاء والقسوة، والإحساس المترف، والعلم الواسع، والذوق الرفيع النفاذ. وكانت له -إلى ذلك- ذاكرة واعية، وقريحة شاعرية، جعلت معاصريه يضعونه في صفوف المبرزين من الشعراء. وأحاط المعتضد نفسه بهالة من الشعراء. جعلت همها مديحه، وأفرغ عليهم الأموال فبدا في هيأة خلابة من العظمة.

وقد سلك في الاستبداد طريق سميِّه المعتضد العباسي في بغداد، وحتى في مجالات اللهو والعبث والشراب، التي كان هو وشعراؤه يسرفون فيها في المتاع، كان يحرص على أن يبدو رئيسًا مهيبًا.

وكان هو وجلساؤه يرتجلون في خلواتهم خمريات هي غاية في رقة الذوق وجمال الأسلوب. وربما أودع شعره من المعاني ما يمس العقيدة، كقوله:

اشرب على وجه الصباح ... وانظر إلى نَوْر الأقاح

واعلم بأنك جاهل ... إن لم تقل بالاصطباح[٩٢]

وكان المعتضد لا يكل من العمل، لا يعادل تفلنيه فيه إلا ترامية على ملذاته. وكان إذا أبغض إنسانًا لم ينقع غلة حقده شيء، وقد بلغ من القسوة حدًا جعله يتخذ جماجم أعدائه الذين أذاقهم الحتوف أصصا يزرع فيها الزهر، ويزين بها

حديقته ويتلذذ بتأملها كما يتلذذ البخيل النظر إلى ماله؛ ومع ذلك فقد كان يحسب نفسه خير الملوك ويقول:

هذي السعادة قد قامت على قدم ... وقد جلست لها في مجلس الكرم

فإن أردت إلهي بالورى حسنًا ... فَمَلِّكْنِي زمامَ العرب والعجم

فإنني لا عدلتُ الدهرَ عن حسَنٍ ... ولا عدلتُ بهم عن أكرم الشيم

أقارعُ الدهرَ عنهم كل ذي طلب ... وأطرد الدهر عنهم كلَّ ما عرم[٩٣]

وكان موفقًا في حروبه، فتمكن من القضاء على بعض إمارات الطوائف الصغيرة في جنوب الأندلس، وضم أراضيها إلى إشبيلية فاتسعت رقعتها، وأوحت إليه فتوحه بعض شعره، ومن ذلك ما قاله بعد أن حاز رندة وحصنها:

لقد حُصِّنت يا رنده ... فصرت لملكنا عقده

أفادتناك أرماح ... وأسياف لها حده

وأجناد أشداء ... بهم تنتهي الشده

غدوتُ يرونني مولى ... لهم، وأراهمُ عبده

سأفنى مدة الأعدا ... ء إن طالت بي المدَّه

وتبلى بي ضلالتهم ... ليزداد الهدى جِده

فكم من عدة قُتلـ ... ـت منهم بعدها عده

نظمت رءوسهم عقدًا ... فحلّت لبةَ السده[٩٤]

وقد حفل بلاط بني عباد بحشد كبير من الشعراء، جُمع الكثير من شعرهم وأودع مجموعات المأثورات الأدبية التي ظهرت فيما بعد، ومن أولئك: أبو الوليد بن حبيب (توفي ٤٤٠/١٠٤٨) وزير المعتضد، وأبو بكر بن القوطية نديم المعتمد،

obeikandi.com

وعلى بن حصن الذي أبدع في وصف «فرخ الحمام» بقوله:

وما هاجني إلا ابن ورقاء هاتف ... على فنن بين الجزيرة والنهر

مُفستقُ طوقٍ لازورديّ كلّكلٍ ... موشى الطلّى أحوى القوادم والظهر

أدار على الياقوت أجفانَ لؤلؤٍ ... وصاغ من العقيان طوقًا على الثغر

حديدُ شبا المنقار داجٍ كأنه ... شبا قلم من فضة مُدَّ في حبر

توسد من فرع الأراك أريكة ... ونام على طيِّ الجناح مع النحر

وما رأى دمعي مُراقًا أرابه ... بكائي فاستولى على الغصن النضر

وحث جناحيه، وصفق طائرًا ... طار بقلبي، حيث طار، ولا أدري[٩٥]

ف٢٣-المعتمد

بيد أن المعتمد (٤٣٢/١٠٤٠- ٤٨٩/١٠٩٥) - ابن المعتضد وخليفته على عرش إشبيلية - يحتل في الأدب الأندلسي مكانًا أعظم وأهم من مكان أبيه وهو من شعراء العربية الذين أجمع الناس على الإعجاب بهم في العالم الإسلامي كله[٩٧]. وقال غريسه غومس عن شاعريته:

«إذا كان لا بد من تصوير المحنة التي شملت الشعر خلال ذلك العصر في صورة شخص واحد من أهله، فليس أوفق لذلك من المعتمد بنّ عباد صاحب إشبيلية (٤٦١ /١٠٦٨-٤٨٤/١٠٩١). كان أبوه المعتضد(٤٣٤/١٠٤٢-٤٦٢/١٠٦٩) صاحب الأفاعيل الشنيعة، وأبناؤه جميعًا - وخاصة «الراضي» الرقيق صاحب رندة -كلهم شعراء. ولكنه بزهم جميعًا وفاق كل معاصريه في ذلك المضمار؛ لأنه كان يمثل الشعر من ثلاثة وجوه، أولها: أنه كان ينظم شعرًا يثير الإعجاب، وثانيهما: أن حياته نفسها كانت شعرًا حيًا، وثالثهما: أنه كان راعي شعراء الأندلس أجمعين بل شعراء الغرب الإسلامي كله، فإلى بلاطه لجأ شعراء صقلية وإفريقية عندما

غزا النورمان بلادهم، واستولوا على بعضها وتهددوا الباقي».

ف٢٤- المعتمد وابن عمار

بدأ المعتمد حياته السياسية عاملاً لأبيه على وَلْبَة، ثم قاد جيش إشبيلية الذي حاصر شلب عام ١٠٥٢/٤٤٤. وهنا بدأت مواهبه الشاعرية تتجلى، فقد لقي هناك أبا بكر بن عمَّار، وكان شابًا عربي الأرومة فقير المنبت درس الأدب في شلب وقرطبة، ثم مضى يذرع نواحي الأندلس في ملابس مستتكرة بعض الشيء، وجعل يقول المدائح فيمن يمنحه العطاء، ولم يقصِّر هذه المدائح على الأمراء والرؤساء على ما جرت به عادة كبار الشعراء إذ ذاك، ثم لم يلبث أن دخل على المعتمد، ولمَّا كان كلاهما من عشَّاق المسرات والمغامرات والشعر الجميل، فقد توطدت بينهما أسباب المودة.

وقد اندفع المعتمد في حبه ابن عمار اندفاعًا شديدًا صادقًا، في حين أنَّ ودَّ ابن عمار للمعتمد لم يخلُ من الشكوك والريب أبدًا. ولم يكن كصحابه الأمير، يؤمن بدوام الرخاء والهناء، وإنما كان رجلاً ذاق مرارة الخيبة التي يخلفها في النفس الكفاح الدائم في سبيل العيش، وكسب ابن عمار من حياته المجهدة كذلك شيئًا من الخبرة بطبائع البشر، ومن ثم كانت الهواجس السوداء تطوف بنفسه، وتلقي في روعه أنه فاقدٌ ودَّ المعتمد يومًا من الأيام[٩٧].

وقد أبدع ابن عمار في قصيدةٍ مَدَحَ بها المعتمد، معروفة ذائعة في الأدب العربي يقول فيها:

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى ... والنجم قد صرف العنان عن السُّرَى

والصبحُ قد أهدى لنا كافوره ... لما استرد الليل منَّا العنبرا

والروض كالحسنا كساه زهرُهُ ... وشْيًا، وقلَّده نداه جوهرا

obeikandl.com

أو كـالفلام زهـا بـورد رياضـه ... خجـلاً وتـاه بآسـهن مُعـذرا
روض كـأن الـنهر فـيه معصـم ... صـاف أطـل عـلى رداء أخضـرا
وتهـزه ريـح الصـبا فـتخاله ... سـيف ابـن عـباد يـبدد عسـكرا[٩٨]
عـبادٌ المخضَـرُ نـائلُ كفـه ... والجـو قـد لـبس الـرداء الأغـبرا
نخـتار - إذ يهـب الخـريدة - كاعـبًا ... والطِّـرفَ أجـردَ والحسـام مجوهـرا
ملـك إذا ازدحـم الملـوك بمـورد ... - ونحـاه - لا يَـرِدون حـتى يصـدرا

إلخ.......

قضى ابن عمار في إشبيلية أول الأمر زمنًا رخيًّا، واشتغل المعتمد به عن أمور الدولة؛ فأنكر المعتضد ذلك وأراد أن يصرف ابنه عنه فنفاه من إشبيلية، فتوجَّه إلى سرقسطة؛ حيث أقام حتى مات المعتضد وصار الأمر للمعتمد، فاستقدمه وخيَّره في ولاية يتولاها، فاختار شلب، فأجابه المعتمد إلى ما طلب والألم يملأ نفسه لفراقه، ألمٌ حرَّك شاعريته فقال بضعة أبيات ذكر بها أيام ا لشباب السعيدة في ذلك البلد مع صاحبه:

الا حـيِّ أوطـاني «بشـلْب» أبـا بكـر ... وسلهن: هـل عهـد الوصـال كمـا أدري؟
وسلم عـلى «قصـر الشـراجيب» عن فتًى ... لـه أبـداً شـوق إلى ذلـك القصـر
مـنازل آسـاد وبـيضٌ نواعـم ... فناهـيك مـن غيلٍ، وناهـيك مـن خـدر
فكـم لـيلة قـد بـتُّ أنعـم جـنحها ... بمخصـبة الأرداف مجدبـة الخصـر
وبـيضٍ وسمـرٍ فـاعلاتٍ بمُهجـتي ... فِعـال الصـفاح البـيض والأسـلِ السُـمر
ولـيلٍ بسـد الـنهر لهـوًا قطعـته ... بـذات سـوار مـثل مـنعطف الـبدر
نضـت بُـردها عـن غصـن بـان مـنعَّمٍ ... نضـير كمـا انشق الكُمام عن الزهر[٩٩]

دخل ابن عمار شلب دخول الأمراء في موكب حافل، ولكنه لم ينكر فضلاً لأحد ممن أحسنوا إليه في أيامه الخوالي، ثم جعله المعتمد وزيرًا له وأعاده إلى جانبه، وقد أخذ شاعر شلب بنصيب وافر في الدفاع عن إشبيلية وذود النصارى عنها، وكانوا لا ينفكون ينوشون حدودها ويُغيرون على أراضيها.

وترى له في ذلك قصة مشهورة - ذات طابع أسطوري خالص - تذكر كيف استطاع ابن عمار صرف الأذفونش (ألفونسو السادس) عن أراضي إشبيلية «بألطف حيلة وأيسر تدبير»، كما يقول عبد الواحد المراكشي[١٠٠]: «فقد صنع سُفرة شطرنج في غاية الإتقان، فبلغ خبرها الأذفونش فلما خرج للقائه سأله عنها فقال: «آتيك بها على أن ألعب معك عليها فإن غلبتني فهي لك وإن غلبتك فلي حكمي». وغُلب الأذفونش فطلب إليه ابن عمار أن يرجع فلم يسعه إلا الارتداد[١٠١].

وأعان ابن عمار المعتمد على ما كان بسبيله من توسيع رقعة إشبيلية، وخاصة في الاستيلاء على مرسية وانتزاعها من يد صاحبها ابن طاهر، وقد حاول ابن عمار في الوصول إلى ذلك بالاتفاق مع كُنْد برشلونة - رامُن بيرنجوير الثاني الملقب برأس الأسطب Capeza de estopa - على أن يعينه على ابن طاهر لقاء مبلغ من المال، وتَرَكَ الرشيدَ بنَ المعتمد رهينة عند رامُن؛ حتى يُدفع المال. ثم كتب إلى المعتمد بذلك فأبطأ عليه رده، وقلق الرشيد حين طال بقاؤه بيد أمير برشلونة، ووجد ابن عمار نفسه في مركز حرج، فأدركه الغضب على أميره وبعث إليه بالأبيات التالية من «جيَّان»:

أُصَدِّق ظني أم أُصيخ إلى صحبي ... وأُقْضي عزيمي أم أعود مع الركب

إذا انقدتُ مع رأيي مشيتُ مع الهوى ... وإن أتعقَّبْه نكصت على عقبي

وإني لتثنيني إليك مودةٌ ... يغيِّرها ما قد تعرَّض من ذنبي

obeikandl.com

فما أغرب الأيام فيما قضت به ... تريني بعدي عنك آنسَ من قربي

أخافك للحق الذي لك في دمي ... وأرجوك للحب الذي في قلبي

وكم قد فَرَتْ يمناك بي من ضريبة ... ولا بدَّ يومًا، أن يفلَّل من غربي

وأعلم أنَّ العفو منك سجيةٌ ... فلم يبق إلا أن تخفف من عتبي

ولي حسنات لو أمُتُّ ببعضها ... إلى الدهر لم يرتع لنائبة سربي[102]

وصفح المعتمد عما بدر من ابن عمار وكتب إليه:

تقدَّم إلى ما اعتدتَ عندي من الرَّحب ... وَرِدْ تلقك العُتبى حجاباً من العُتب

مَتى تلقني تلقَ الَّذي قد بَلَوْتَهُ ... صفوحًا عَن الجاني رءوفاً على الصحب

سأُوليكَ منّي ما عهدتَ من الرضا ... وأعرِضُ عَمّا كانَ إن كانَ من ذنب

فَما أَشعَرَ الرَحمنُ قَلبيَ قَسوَةً ... ولا صارَ نسيانُ الأذمّة من شرعبي

تكلفتُه أبغي به لَكَ سَلوَةً ... فَلَيسَ يُعاني الشِعرَ مُشتَرِكُ اللب

ثم تمكن ابن عمار من الاستيلاء على مرسية بمعاونة ابن رشيق صاحب حصن بَلْش (Velez الحالية)، فملكه العجب الشديد بنفسه وأخذ هيئة الأمراء في المناسبات الحافلة، وحاكى المعتمد «في التعبير وكتب: (ينفذ هذا إن شاء الله) في أسفل قرطاسه، وتختَّم في كلتا يديه»[104]

فبدأت الشكوك تساور نفس المعتمد، وفوجئ بالأمر فتغيرت نفسه وخشي أن يكون صديقه القديم مشتغلاً بالتدبير عليه. ولا يمكننا القطع بأن ابن عمار كان يفكر في الوثوب بالمعتمد، فقد كان مخلصًا لأميره وإن لم يتحمس له ويندفع نحوه كما كانت حال المعتمد معه.

وكان صادقًا حين قال:

تلك المثل الأعلى وما أنا حارثا ... ولا أنا ممن غيرته الحوادث
ولا شاركته الشمس في وإنه ... ليناى بحظي منك ثان وثالث
فديتك ما للبشر لم يَمْنرِ برقه ... ولا نفحت تلك السجايا الدمائث
أظن الذي بيني وبينك أذهبت ... حلاوته عني الرجال الأخابث
تنكرتُ، لا أني لفضلك ناكر ... لديَّ، ولا أني لعهدك ناكث
ولكن ظنون ساعدتها سخائم ... كما ساعدت صوت المثاني المثالث[١٠٥]
أبعد انقضا خمس وعشرين حجة ... تجافت لنا عنها الخطوب الكوارث
حللت يدًا بي هكذا وتركتني ... نهابًا وللأيام أيد عوابث
وهل أنا إلا عبد طاعتك التي ... إذا مت عنها قام بعدي وارث
أعد نظرًا لا توهن الراي إنه ... قديمًا كبا هافٍ وأدرك رائث[١٠٧]
ستذكرني إن بان حبلي وأصبحتْ ... تُبين بكفّيك الحبال الرثائث
وتطلبني إن غاب للرأي حاضر ... وقد غاب عني للخواطر باعث
أعوذ بعهد نطته بك أن ترى ... تحل عراه الماقدات النوافث[١٠٧]

والصحيح أن ابتعاد ابن عمار الطويل عن إشبيلية أتاح الفرصة لأولئك «الرجال الأخابث» لإفساد نفس المعتمد عليه، وكان من بينهم الوزير أبو بكر بن زيدون، ابن أبي الوليد بن زيدون شاعر قرطبة آنف الذكر، وزاد الحال سوءًا أن ابن عمار لم ينفذ ما أمر به المعتمد من إطلاق سراح ابن طاهر، مما أسرع بشاعر شلب إلى حتفه، ذلك أن ابن طاهر احتال للهرب من محبسه، وعاونه في ذلك ابن عبد العزيز صاحب بلنسية، فملك الغضب ابن عمار ونظم قصيدة يحضُّ فيها أهل بلنسية على الوثوب بابن عبد العزيز، قال فيها:[١٠٨]

لِخَبِّرْ بلنسية، وكانت جنة ... أنْ قد تدلَّتْ في سواء النار

obeikandl.com

غدرت وفيًّا بالعهود وقلّما ... عثر الوفيُّ سعى إلى الغدارا

جازوا بني عبد العزيز فإنهم ... جرّوا إليكم أسوأ الأقدار

ثوروا بهم متأوّلين وقلّدوا ... ملكًا يقوم على العدو بثار

هيهات تطمع في النجاة لطالب ... ساع إذا ونت الكواكب سار

جرار أذيال القنا ظنوا به ... قد زاركم في الجحفل الجرار[١٠٩]

وعلم المعتمد بالأمر، واطلع على قصيدة ابن عمار، فغضب عليه غضبًا شديدًا؛ لأن ابن عبد العزيز كان صديقًا له، وعارض شعر ابن عمار بأبيات يسخر فيها منه قال:

كيف التفلّت بالخديعة من يدي ... رجل الحقيقة من بني عمار؟

إلى أن يقول:

الأكثرين مسوّدًا ومملكا ... ومتوّجًا في سالف الأعصار

والموثرين على العيال بزادهم ... والضاربين لهامة الجبار

الناهضين من المهود إلى العلا ... والمنهضين الغار بعد الغار[١١٠]

وحركت سخرية المعتمد دواعي الغضب في نفس ابن عمار وأفلت زمامه من يده، فكتب قصيدة بالغة العنف ذمّ فيها المعتمد وآله وزوجه الرميكية[١١١]، وحصلت في يد المعتمد نسخة منها بخطّ ابن عمار، فلما علم هذا الأخير بذلك هلعت نفسه، وفر من مرسية ولجأ إلى الأذفونش فأساء استقباله وازورّ عنه، فانصرف عنه إلى سرقسطة ومضى يعين صاحبها في أموره؛ ثم حاول الاستيلاء على «شقورة» فوقع في أسر صاحبها في أثناء المحاولة، وعرض آسِرُهُ أن يسلمه لمن يدفع فيه أكبر مبلغ، فبذل المعتمد أقصى ما كان الرجل يطلبه وحصل ابنُ عمار في يده. وقد حاول ابن عمار أن يظفر بصفح المعتمد، وجرى بينهما ما أحيى في نفس الشاعر ذبالة من

الأمل، ولكن الأمل لم يلبث أن خبا بسبب سعايات ابن زيدون؛ وانتهى أمر ابن عمار بأن مات قتيلاً بيد المعتمد[١١٢].

ف٢٥- اعتماد

وهناك شخصية أخرى تجلّت في بلاط المعتمد وكان لها أثر بعيد في إنتاجه الشعري، تلك هي اعتماد الرميكية التي كانت جارية تاجر من مياسير إشبيلية يسمى «رميك». وقد صادفها المعتمد في إحدى نزهاته مع صاحبه ابن عمار وأعجب بها؛ إذ أجازت على البديهة شطر بيت عجز عن إتمامه ابن عمار نفسه، فاشتراها من صاحبها وتزوجها.

كان حديث اعتماد يفيض عذوبة وطلاوة وكانت طلعتها مُسْعِدة، حاضرة الجواب، بارعة الردود، وكانت فيها رقة طبيعية غالبة ومرحٌ لطيف تشوبه سذاجة الطفولة ولكنّها كانت تسرف في دلالها ونزواتها إلى حدٍّ يضيق عنه صبر المعتمد.

ومن نزواتها المسرِفة ما تحكيه الكتب من أنها طلبت إلى المعتمد أن يريها الثلج فزرع لها أشجار اللوز على جبل قرطبة؛ حتى إذا نوَّر زهرها بدت الأشجار وكأنها محملة بالثلج الأبيض، ومنها تمنيها أن تسير في الطين برجليها كما رأت الناس يفعلون، فأمر المعتمد بأن يُذَرَّ لها في رحبة القصر الكافور والطيوب وأن تعجن بماء الورد؛ حتى صار كالطين وخاضت فيه مع جواريها[١١٣].

وقد أبغضها الفقهاء ورموها بأنها «ورَّطت المعتمد فيما ورطته من الخلاعة والاستهتار والمجاهرة؛ حتىَ كتب عليه أهل إشبيلية بذلك وبتعطيل صلوات الْجُمَع عقودًا، ورفعوها إلى أمير المسلمين»[١١٤]. ولم تكن هي لتلقىَ بالاً إلى أولئك الرجال الذين بذلوا قصاراهم في إزالة ملك بني عباد، ومضى المعتمد على حاله معها فلم يقصِّر في شيء يجلب إلى نفسها السرور، وقد بلغ من إعزازه إياها أن صنع أبياتًا

يبدأ كل منها بحرف من حروف اسمها وهي:

أغائبة الشخص عن ناظري	وحاضرة في صميم الفؤاد
عليك السلام بقدر الشجون	ودمع الشئون وقدر السهاد
تملكت مني صعبَ المرام	وصادفت مني سهل القياد
مراديَ أعياك في كل حين	فيا ليت أنيَ أُعطَى مرادي
أقيمي على العهد في بيننا	ولا تستحيلي لطول البعاد
دسست اسمك الحلو في طيه	وألّفت لمنها حروف «اعتماد»(١١٥)

وقال المعتمد فيها كذلك شعرًا كثيرًا نختار منه هذه الأبيات:

كَتَبتُ وَعِندي مِن فِراقِكِ ما عِندي	وَفي كَبِدي ما فيهِ مِن لَوْعَةِ الوَجدِ
وَما خَطَّتِ الأَقلامُ إِلّا وَأَدمُعي	تَخُطُّ كِتابَ الشَوقِ في صَفحَةِ الخَدِّ
وَلَولا طِلابُ المَجدِ زُرتُكِ طَيَّهُ	عَميدًا كَما زارَ النَّدى وَرَقَ الوَرْدِ(١١٦)

ف٢٦ - شعراء بلاط المعتمد - ابن حمديس الصقلي

ليس من الغريب - وأمير الدولة ووزيرها شاعران - أن يظفر الشعراء بحظوة كبيرة في بلاطها، ولقد قال ابن خاقان: إن المعتمد «ملك قمع العدا، وجمع الباس والنَّدى، وطلع على الدنيا بدر هدى، لم يتعطل يومًا كفُّه ولا بنانه، آونة يراعه وآونة سنانه، وكانت أيامه مواسم، وثغور بره بواسم، ولياليه كلها دررًا، وللزمان أحجالاً وغررًا، لم يغفلها من سمات عوراف، ولم يُضْحِها من ظل إيناس وارف، ولا عطلها من مأثرة بقي أثرها باديًا، ولقي معتفيه منها إلى الفضل هاديًا، وكانت حضرته مطمحًا للهمم، ومسرحًا لآمال الأمم، وموقفًا لكل كمي، ومقذفًا لذي أنف حمى، لم تخلُ من وفد، ولم يصح جوها من انسجام رفد، فاجتمع تحت لوائه

من جماهير الكماة، ومشاهير الحماة، أعداد يغصُّ بهم الفضاء، وأنجاد يزهى بهم النفوذ والمضاء، وطلع في سمائه كل نجم متقد، وكل ذي فهم منتقد، فأصبحت حضرته ميدانًا لرهان الأذهان، وغاية لرمي هدف البيان، ومضمارًا لإحراز خَصْل في كل معنى وفصل»[١١٧].

وإلى هذا كله كان المعتمد نقّادة دقيقًا للشعر لا يجيز إلا الجيد منه، وكان المجيد يظفر منه بكرم واسع.

وقد ألقى الشاعر عبد الجليل بن وهبون بين يديه البيتين التاليين:

غاض الوفاء فما تلقاه في رجل ... ولا يمر بمخلوق على بال

قد صار عندهم عنقاء مُغْرِبةً ... أو مثل ما حدَّثوا عن ألف مثقال

فقال المعتمد: «عنقاء مغربة وألف مثقال يا عبد الجليل عندك سواء؟» فقال: «نعم» فقال: «قد أمرنا لك بألف دينار، وبألف دينار أخرى تنفقها»[١١٨].

وقد حفل بلاط المعتمد بشعراء شاركوا فيما عبر به من صروف، ومن أولئك ابن زيدون حاسد ابن عمار وعدوه، والحصري الملح في الطلب في غير حياء؛ حتى لقد لقي المعتمد في طنجة وهو في طريقه إلى المنفى فلم يستح من مطالبته بالعطاء[١١٩]، وابن اللبَّانة الداني[١٢٠] الذي يعتبر مثلاً في الوفاء وإخلاص الود، وقد أقام إلى جانب المعتمد يؤنسه في محبسه.

وفي هذا البلاط كذلك نجد «الجارية العبَّادية»[١٢١] التي أهداه إياها مجاهد صاحب دانية، وكان لها في نفس المعتمد مكانٌ عظيم، والراضي بن المعتمد نفسه، وكان شاعرًا مجيدًا[١٢٢]، وبثينة ابنة المعتمد من اعتماد، وقد بيعت سَبِيَّةً في وثاقها عندما استولى المرابطون على إشبيلية، فاشتراها تاجر إشبيلي واستخلصها

من بين الأسرى، فكتبت إلى أبيها أبياتًا بارعة تستأذنه في الزواج من ابن منقذها[١٢٣].

وكان عبد الجبار بن حمديس الصقلي أحد شعراء بلاط المعتمد، وأصله من سرقوسة بصقلية، بارح بلده عندما استولى عليها النورمان في سنة (١٠٧٨/٤٧٠) وأقبل إلى الأندلس وألمَّ ببعض نواحيها، ثم استقر في إشبيلية؛ فلَمْ تلبث براعته في ارتجال الشعر أن ظهرت، وحظي من المعتمد بمكان جميل[١٢٤]. ولما كان ذا عهد بالحروب وقراع الأسنة، فقد صاحب المعتمد إلى ميادين حروبه. وعندما أُسر المعتمد ونُفي إلى أغمات رافقه ابن حمديس إليها، واجتهد في التخفيف عنه بقصائد جميلة، ثم انصرف إلى إفريقية وعاش ردحًا من الزمن في المهدية، ثم انتقل إلى تونس وظلَّ فيها إلى آخر أيامه.

و «ديوان» ابن حمديس مشهور متداول، وقد نشر «أماري» منه جزءًا وأشعاره تعرض جوانب من حياته: شبابه ومغامراته في إفريقية، والحنين إلى وطنه الأول، ومدائح قالها فيمن اتصل بهم من الأمراء وذوي الشأن.

وأما فيما يتصل بالأندلس، فإننا نجد في شعر ابن حمديس إشارات أدبية وحربية، وهو يذكر إقباله على المعتمد وسجن هذا الأخير. وأحسن أشعاره تلك التي يذكر فيها وطنه. ولابن بسام فيه رأي جميل[١٢٥].

ف٢٧- شعر المعتمد في سعوده

بيد أن المعتمد لم يزل طول حياته أبرز الشخصيات الأدبية في عصره، وأشعاره تنقسم بطبيعة الحال إلى قسمين: ما قاله أيام ملكه وإقبال الدهر، وما قاله في منفاه حين اجتمعت عليه الهموم وعبست له الأيام.

ومن لطيف شعره ما قاله وهو بعدُ أمير، وقد أرسله أبوه المعتضد على رأس جيش رمى به مالقة، فانهزم المعتمد من جراء إهماله فغضب أبوه غضبًا شديدًا،

وخاف سَوْرة أبيه فكتب إليه أبياتًا لم تلبث أن ذهبت بغضبه وأعادت إليه صفوه:

لم أوتَ من زمني شيئًا ألذ به ... فلست أعرف ما كأس ولا وتر
ولا تملكني دل ولا خفر ... ولا سبا خلدي غنج ولا حور
رضاك راحة نفسي، لا فجعت به ... فهو العتاد الذي للدهر أدخر
وهو المدام التي أسلو بها، فإذا ... عدمتها وقدَتْ في قلبي الفكَر
أجل، ولي راحة أخرى كَلِفْت بها: ... نظمُ الكُلَى في القنا والهام تنتثر[١٣٦]

وعندما فتح قرطبة قال متحدثًا عنها كما لو كانت غانية جميلة ذات صلف:

من الملوك بشأو الأصْيَد البطل ... هيهات جاءتكم «مَهْريَّة» الدول
خطبتُ قرطبة الحسناء إذ منعتْ ... من جاء يخطبها بالبيض والأسل
وَكم غدت عاطلاً حتىّ عرضتَ لها ... فأصبحتْ في سَرِيِّ الحَلْى والحُلَل
عرس الملوك، لنا في قصرها عُرس ... كل الملوك به في مأتم الوجل
فراقبوا عن قريب - لا أبالكم ! - ... هجوم ليث بدرع الباس مشتمل *

(*) «القلائد»، ص١٢.

كان من المألوف عند شعراء العرب الحديث عن المدن كما لو كانت زوجات من البشر، وقد انتقل هذا إلى الأناشيد الشعبية الإسبانية، ومن هذا ما نراه في القصة الشعرية التي تدور حول شخصية أسطورية اسم صاحبها ابن عمار أيضًا، وفيها نقرأ:

«وهنا، تحدث الملك الدون خوان -استمعوا جيدًا إلى ما قال:

إن أردت يا غرناطة تزوجتُك،

وأعطيتك صداقا قرطبة وإشبيلية!»

[فقالت]:

«إنني متزوجة أيها الملك الدون خوان – متزوجة ولست بأرملة، إن العربي الذي يحوزني يحبني حبًا عظيمًا» [المؤلف].

ف٢٨- المرابطون في إشبيلية

ويصور لنا المعتمد الحياة الرخية التي كان ينعم بها في إشبيلية في شعر كثير، منه قوله:

وَلَقَد شَرِبتُ الراحَ يَسطَعُ نُورُها ... وَاللَّيلُ قَد مَدَّ الظَلامَ رِداءَ
حَتّى تَبَدّى البَدرُ في جَوزائِهِ ... مَلِكاً تَناهى بَهجَةً وَبَهاءَ
وَتَناهَضَت زُهرُ النُجومِ يَحُفُّهُ ... لألاؤُها فاستَكمَلَ اللألاءَ
لَمّا أَرادَ تَنَزُّهاً في غَربِهِ ... جَعَلَ المَظَلَّةَ فَوقَهُ الجَوزاءَ
وَتَرى الكَواكِبَ كَالمَواكِبِ حَولَهُ ... رُفِعَت ثُرَيّاها عَلَيهِ لِواءَ
وَحَكَيتُهُ في الأَرضِ بَينَ مَواكِبَ ... وَكَواعِبَ جَمَعَت سَناً وَسَناءَ
إِن نَشَّرَت تِلكَ الدُروعَ حَنادِساً ... مَلأَت لَنا هَذي الكُؤوسُ ضِياءَ
وَإِذا تَغَنَّت هَذِهِ في مِزهَرٍ ... لَم تَألُ تِلكَ عَلى التَريكِ غِناءَ*

وقد كان المعتضد متخوفاً من ناحية المرابطين، لا تزال الهموم تساوره بسبب نجمهم الصاعد وقوتهم المتزايدة في إفريقية، وأراد القدر أن تصدق هذه المخاوف في عهد ابنه المعتمد، فقد اشتد ضغط النصارى على إشبيلية، ووجد الرجل نفسه مضطراً إلى الاستنجاد بالمرابطين بعد تردد طويل، ونصحه ابنه الرشيد بالعدول عن ذلك وخوّفه من المرابطين، فأجابه قائلاً: «أي بني، والله لا يُسمع عني أبداً أني أعدت الأندلس دار كفر، ولا تركتها للنصارى فتقوم عليَّ اللعنة على منابر الإسلام مثلما قامت على غيري. حَرْزُ الجمال-والله-عندي خير من رعي الخنازير»[١٢٧]

ثم اضطر بعد ذلك إلى الاستنجاد بالسُّلَيطين (ألفونسو السادس) عندما اشتد بلاؤه بالمرابطين، فأقبل ألفو نسو إلى إشبيلية بعد فوات الأوان.

(*) «نفح»، جـ٢، ص٦٢٤.

وقد وقف الفقهاء إلى جانب المرابطين وتألبوا على أمراء الأندلس، ومضوا يكثرون فيهم ويتهمونهم بالمروق عن الدين، وانقلب المرابطون من معيِّنين للملوك الطوائف إلى غزاة لبلادهم، واستولوا على معاقلهم واحداً بعد واحد، وسقطت إشبيلية في أيديهم في سنة ١٠٩١/٤٨٤ بعد صراع عنيف مع المعتمد وأبنائه. يقول ابن اللبَّانة: «فلما وصل (المعتمد) إلى «باب الصباغين» وجد ابنه «مالكًا» مقتولاً، فاسترجم له ودخل القصر. و زاد الأمر بعد ذلك، ودُخل البلد من كل جهاته فطلب الأمان له ولمن معه، فأُمِّن وجميع من له، وأعدت له مراكب واجتاز إلى طنجة»[١٢٨].

وصار المعتمد وأبناؤه أسرى في أيدي المرابطين، فحملوهم إلى طنجة. وقد ودعهم أهل إشبيلية وداعًا مؤثرًا بلسان ابن اللبَّانة حيث قال:

حموا حريمهمُ حتى إذا غُلبوا ... سقوا على نسق في حبل مقتادِ
وأُنزلوا عن متون الشهب واحتملوا ... فُوَيْق دُهْم لتلك الخيل أندادِ
وعيثَ في كل طوق من دروعهم ... فصيغَ منهنَّ أغلال لأجيادِ
نسيت إلا غداة النهر كونهم ... في المنشآت كأموات بألحادِ
والناس قد ملئوا العبرين واعتبروا ... من لولو طافيات فوق أزيادِ
حُطَّ القناع فلم تُستر مخدَّرة ... ومُزِّقت أوجه تمزيق أبرادِ
حان الوداع فضجت كل صارخة ... وصارخ من مفداة ومن فادِ
سارت سفائنهم والنوح يصحبها ... كأنها إبل يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دمع وكم حملت ... تلك الفطائع من قطعات أكبادِ
من لي بكم يا بني ماء السماء إذا ... ماء السماء أبي سقيا حشا الصادي[١٢٩]

ولما بلغ المعتمد طنجة في طريقه إلى منفاه؛ لقيه الحصري الشاعر «فجرى معه على سوء عادته من قبح الكدية وإفراط الإلحاف»، وسأله جائزة؛ فأبت أريحيَّته إلا أن يبعث له بكل ما كان معه: ستة وثلاثين مثقالاً، «فطبع عليها وكتب معها بقطعة شعر يعتذر عن قلتها»[١٣٠].

ف٢٩-شعر المعتمد في منفاه

وفي ظلال الأسر وآلامه، قال المعتمد في منفاه في أغمات أصدق أشعاره عاطفةً، وأبلغها في النفس أثرًا. بعثت معانيها في نفسه الآلام التي عاناها خلال السنوات الأخيرة من عمره، قال في الأغلال التي كان ينوء بها:

تَعَطَّفَ في ساقي تَعطُّفَ أرقَمِ … يُساوِرُها عَضًّا بأنيابِ ضَيغَمِ
إليكَ فلو كانت قيودُكَ أُسعِرَت … تَضَرَّمَ منها كُلُّ كَفٍّ ومِعصَمِ
وإنِّيَ مَن كانَ الرِجالُ بِسَيبِهِ … ومَن سَيفِهِ في جَنَّةٍ أو جَهَنَّمِ(١٣١)

وكانت ذكريات الأيام السعيدة الخالية تطوف بذهنه فيقول:

كُنتُ حِلفَ النَّدى وربَّ السَّماحِ … وَحَبيبَ النُّفوسِ وَالأرواحِ
إذ يَميني لِلبَذلِ يَومَ العَطايا … ولقبضِ الأرواحِ يَومَ الكِفاحِ
وَشِمالي لِقَبضِ كُلِّ عِنانٍ … يُقحِمُ الخَيلَ في مَجالِ الرِّماحِ
وَأنا اليَومَ رَهنُ أسرٍ وَفَقرٍ … مُستَباحُ الحِمى مَهيضُ الجَناحِ
لا أُجيبُ الصَّريخَ إن حَضَرَ النا … س ولا المُعتَفينَ يَومَ السَّماحِ
عادَ بِشري الَّذي عَهِدتَ عُبوسًا … شَغَلَتني الأشجانُ عَن أفراحي
فالتِماحي إلى العُيونِ كَريهٌ … وَلَقَد كانَ نُزهَةَ اللُّمّاحِ *

ويقول غرسية غومس في هذا الصدد: «وكان ألم المعتمد على الحقيقة ألمًا نفسيًا روحيًا، مبعثه التباين بين حياته الماضية وحياته في المنفى، وأساسه الاختلاف الواضح بين الحضارة التي كان يعيش في ظلها.والبربرية التي وجد نفسه بين أنيابها في منفاه، ذلك الاختلاف البعيد بين قصور إشبيلية وبين أكواخ المغرب وما فيها من مرارة:

بَكى المُبارَكُ في إثرِ ابنِ عَبّادِ … بَكى عَلى أثرِ غِزلانٍ وآسادِ

(*) نيكل: مختارات، ص١٠٠

بَكَت ثُرَيّاهُ لا غُمَّت كَواكِبُها ... بِمِثلِ نَوءِ الثُرَيّا الرائِحِ الغادي
بَكى الوَحيدُ بَكى الزاهي وَقُبَّتُهُ ... وَالنَهرُ وَالتاجُ كُلٌّ ذُلُّهُ بادي [١٣٢]

وكان يُرى في قطرات دمعه خضرة أشجار زيتون «الشَّرف»، وبياض المنازل على شواطئ النهر عند طَرَيانه، كما يرى السحرة الأشياء في كرة البلور.

ولقد كان يستثير شجونه أن يجد يده خلوًا مما تجود به - وهو الجوّاد صاحب الندى - وأن يجد سيفه عاطلاً مهملاً، ورماحه يرين عليها الخمول والصدأ:

تَبَدَّلتُ مِن عِزِّ ظِلِّ البُنودِ ... بِذُلِّ الحَديدِ وَثِقلِ القُيودِ
وَكانَ حَديدي سِناناً ذَليقاً ... وَعَضباً دَقيقاً صَقيلَ الحَديدِ
فَقَد صارَ ذاكَ وَذا أَدهَما ... يَعَضُّ بِساقَيَّ عَضَّ الأُسودِ [١٣٣]

أو:

كَذا يَهلِكُ السَيفُ في جَفنِهِ ... إِذا هَزَّ كَفّي طَويلُ الحَنينِ
كَذا يَعطَشُ الرُمحُ لَم أَعتَقِلهُ ... وَلَم تُروِهِ مِن نَجيعٍ يَميني [١٣٤]

وكانت تتمثل في ذهنه مآسي حياته كلها: لقد وقعت إحدى بناته بين براثن الأسر وبيعت رقيقة، واشتراها تاجر وزوجها من ابنه، ونزع واحد ممن بقى له من البنين إلى الثورة وانتضى لمناوشة المرابطين، وشكت زوجه وبناته - اللاتي كنَّ يسرن بأرجلهن في العنبر والكافور- مرارة الفقر والمهانة، واضطررن إلى الغزل بأيديهن ليكسبن عيشهن:

فيما مَضى كُنتَ بِالأَعيادِ مَسرورا ... فَساءَكَ العيدُ في أَغماتَ مَأسورا
تَرى بَناتِكَ في الأَطمارِ جائِعَةً ... يَغزِلنَ لِلناسِ ما يَملِكنَ قِطميرا
بَرَزنَ نَحوَكَ لِلتَسليمِ خاشِعَةً ... أَبصارُهُنَّ حَسيراتٍ مَكاسيرا
يَطَأنَ في الطينِ وَالأَقدامُ حافِيَةٌ ... كَأَنَّها لَم تَطَأ مِسكاً وَكافورا

كان كل شيء حوله يستدعي أحزانه وشجونه، فمضى يتغنى بالرياح

obeikandi.com

والطيور خاصة، وجعل يقول الشعر مخاطبًا سربًا من القَطَا حلقت بأجنحتها عاليًا في الفضاء:

بَكيتُ إلى سربِ القَطَا إذ مَرَرْنَ بي ... سَوارِحَ لا سِجنٌ يَعوقُ ولا كبلُ
ولَم تَكُ - واللهِ المعيذُ - حسادَةً ... ولَكِن حَنينًا إنّ شكلي لَها شكلُ
فاسرح فلا شملي صَديعٌ ولا الحَشا ... وَجيعٌ ولا عَيناي يُبكيهما ثُكلُ
هَنيئًا لَها أن لَم يُفرِّق جَميعُها ... ولا ذاقَ منها البُعدَ عَن أهلِها أهلُ
وَأن لَم تَبِت مِثلي تَطيرُ قُلوبُها ... إذا اهتَزَّ بابُ السجنِ أو صلصلَ
لِنَفسي إلى لُقيا الحمامِ تَشوُّفٌ ... سِوايَ يُحِبُّ العَيشَ في ساقِهِ كَبلُ
ألا عَصَمَ اللهُ القَطا في فِراخِها ... فَإنَّ فِراخي خانَها الماءُ وَالظِلُّ

وينشد على لسان قمرية فقدت إلفها:

بَكَت أن رأت إلفَين ضَمَّهُما وَكر ... مَساءً وَقَد أخنى عَلى إلفِها الدَهرُ
وَناحَت فَباحَت وَاستَراحَت بِسِرِّها ... وَما نَطَقَت حَرفًا يَبوحُ بِهِ سِرُّ
فَما لِيَ لا أبكي؟ أم القَلبُ صَخرَةٌ؟ ... وَكَم صَخرَةٍ في الأرضِ يَجري بِها نَهرُ
بَكَت واحِدًا لَم يُشجِها غَيرُ فَقدِهِ ... وَأبكي لآلافٍ عَديدُهُمُ كُثرُ
بُنَيٌّ صَغيرٌ أو خَليلٌ مُوافِقٌ ... يُمَزَّقُ ذا فَقرٌ وَيُغرِقُ ذا بَحرُ
وَنَجمانِ زَينٌ لِلزَمانِ احتَواهُما ... بِقُرطُبَةَ النَكداءِ أو رُندَةَ القَبرُ
عَذَرتُ إذَن إن ضَنَّ جَفني بِقَطرَةٍ ... وَإن لُؤِّمَت نَفسي فَصاحِبُها الصَبرُ
فَقُل لِلنُجومِ الزُهرِ تَبكيهِما مَعي ... لِمِثلِهِما فَلتَحزَنِ الأنجُمُ الزُهرُ[١٣٦]

أو يصف زوجًا من الغربان وقفا على حائط، شأن من ترميه الأيام في ضيق المحابس، لا يزال يتعزى بذكر الطيور، ولسان حاله يردد الأنشودة الإسبانية القديمة:

«أثكلنيها رامي نبال»

لقاه الله شر الجزاء»[١٣٧].

وإن المعتمد ليذكرنا -وهو يرسف في كبوله، وينوء تحت ثقل همومه- بشخصيات الملوك المؤثرة في المآسي القديمة.

وكان يتعزى أثناء هذه المحنة برؤية نفر من الشعراء كان عرفان الجميل يدفعهم إلى زيارته في منفاه، ومن أولئك أبو محمد الحجاري -الذي تلقى من نفحات المعتمد ذات مرة مالاً جزيلاً افتتح به دكانًا وعاش من مكاسبه منه عيشًا رغدًا - أقبل إلى المعتمد يواسيه ويخفف عنه، فأسرَّ المعتمد إليه ذات مرة أنه حفر قبره بيده إذ استصرخ المرابطين.

وكان يسعد إذا زاره أخلص أصدقائه ابن اللبَّانة الداني الشاعر، فأنهى إليه ذات مرة أن عبد الجبار بن المعتمد يحاول إقامة ملك بني عباد من جديد، وأنه استولى على أركشْ (حصن مجاور لإشبيلية) والجزيرة الخضراء واستقل بهما، فانبعثت الآمال في نفس الأمير الأسير، ولا زالت تهدهد خياله؛ حتى وافته المنية في سنة ١٠٩١/٤٨٤. هذا ولم يوفق عبد الجبار فيما كان ساعيًا فيه، وتلاشى أمره بعد قليل[١٣٨].

وقد نظم المعتمد أبياتًا أوصى بأن تكتب على قبره، وشبّه نفسه فيها «بجبل يتهادى فوق أعواد» - ناظرًا في ذلك إلى معنى ضمَّنه المتنبي أحد أبياته - وقد ترجمها غرسية غومس إلى شعر إسباني:

قَبرَ الغَريبِ سَقاكَ الرائِحُ الغادي ... حَقًّا ظَفَرتَ بِأَشلاءِ ابنِ عَبّادِ
بِالحِلمِ بِالعِلمِ بِالنُعمى إِذِ اتَّصَلَت ... بِالخَصبِ إِن أَجدَبوا بِالرِيِّ لِلصادي
بِالطاعِنِ الضارِبِ الرامي إِذا اقتَتَلوا ... بِالمَوتِ أَحمَرَ بِالضِرغامِ العادي
بِالدَهرِ في نِقَمٍ بِالبَحرِ في نِعَمٍ ... بِالبَدرِ في ظُلَمٍ بِالصَدرِ في النادي

نعم، هو الحق، حاباني به قَدَرٌ ... مِنَ السّماء فوافاني لميعاد
ولَم أكُن قبلَ ذاكَ النَّعشِ أعلَمُهُ ... أنَّ الجبال تهادى فوقَ أعواد
كفاكَ فارفق بما استودعتَ من كَرَمٍ ... رَوّاكَ كُلُّ قَطوب البَرق رَعّاد
يبكي أخاك الذي غيّبتَ وابلَه ... تحت الصفيح بدمع رائح غادي
حتى يجودك دمع الطل منهمرًا ... من أعين الزهر لم تبخل بإسعاد
ولا تزالُ صَلاةُ اللهِ دائمةً ... عَلى دَفينِكَ لا تُحصى بتعداد[١٣٩]

ف٣٠-شهرة الملك الشاعر

ووري المعتمد في لحده في أغمات، وظل قبره دهرًا طويلاً مزارًا للكثيرين الذين كانوا يقصدونه للترحم عليه في إجلال، وممن زاره ووقف على قبره أبو بحر عبد الصمد شاعره، ولسان الدين بن الخطيب[١٤٠] (انظر ف٤٥) ويقول ابن الأبار القضاعي: «ورزق من الناس حبًا ورحمة، فهم يبكونه إلى اليوم»[١٤١].

«وفي الواقع أصبح النّاس -على مر الأيام- يعودون بالذاكرة إلى المعتمد، فيرون فيه أعظم مَنْ مَلَكَ الأندلس»، كما يقول دوزي. ومن كلام هذا المستشرق الهولندي في حق المعتمد: «أن أخبار كرمه ونجدته، وروح الفروسية التي مازجت نفسه، حببته إلى قلوب المثقفين من أهل الأجيال التي جاءت بعده.

وكانت محنته العظيمة تثير شجون ذوي الحس المرهف من الناس، أما عامتهم فكانوا مولَعين بأخبار مغامراته وفروسيته؛ حتى بَدْو العرب كانوا يذكرونه بإعجاب عظيم، وكانوا بطبعهم أنقد لكلامه وأعرف بما فيه من بديع اللغة من الحضر».

«وذكر أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي الداني -المعروف بابن اللبّانة- أن رجلاً من أهل إشبيلية كان يحفظ هذا الشعر (شعر المعتمد) في ذلك الأمد، ثم خرج منها لنية منه إلى أقصى حي في العرب، فأوى إلى خيمة من

حياتهم، ولاذ بذمة راع من رُعَاتهم. فلما توسط القمر في بعض الليالي، وهجع السامر، تذكر الدولة العبادية ورونقها، فطفق ينشد القصيدة بأحسن صوت وأشجاه، فما أكملها حتى رفع رواق الخيمة التي أوى إليها رجل عن وجَه وسيم ضخم تدل سيما فضله على أنه سيد أهله فقال: «يا حضري، حياك الله. لمن هذا الكلام الذي اعذوذب مورده، وافضوضل منبته، وتحلت بقلادة الحلاوة بكْره، وهَدَرَ بشقْشِقة الجزالة بَكْره؟» فقال: « هو لملك من ملوك الأندلس يعرف بابن عبَّاد » فقال العربي : « أظن هذا الملك لم يكن له من المُلك إلا حظ يسير، ونصيب حقير. فمثل هذا الشعر لا يقوله من شُغل بشيء دونه»، فعرفه الرجل بعظم رياسته، ووصف له بعض جلالته. فتعجب العربي من ذلك ثم قال: «وممن الملك، إن كنت تعلم؟» فقال الرجل: «هو في الصميم من لخم، والذؤابة من يعرب».

فصرخ العربي صرخة أيقظ الحي بها من هجعته. ثم قال: «هلمُّوا، هلمُّوا» فتبادر القوم إليه ينثالون عليه، فقال: «معشر قومي، اسمعوا ما سمعته، واعوا ما وعيته، فإنه لفخر طلبكم، وشرف تلاصق بكم. يا حضري، أنشد كلمة ابن عمنا»، فأنشدهم القصيدة. وعرَّفهم العربي بما عرفه الرجل به من نسب المعتمد، فخامرتهم السراء، وداخلتهم العزة، وركبوا من طربهم متون الخيل، وجعلوا يتلاعبون عليها باقي الليل، فلما أرسل الليل نسيمه، وشق الصباح أوكاد أديمه، عمد زعيم القوم إلى عشرين من الإبل فدفعها إلى الرجل، وفعل الجميع مثلما فعل، فما كان رأد الضحى إلى وعنده هنيدة من الإبل. ثم خلطوه بأنفسهم، وجعلوه مقر سرورهم وتأنسهم»[١٤٢].

وقد ختم دوزي كلامه عن المعتمد بن عباد بقوله: «هذا، ولم يكن المعتمد قط حاكمها عظيمًا بحال، فقد تولى مقاليد شعب أفسد طبعه الترف، فلم يصرف شيئًا من العناية إلى أمور رعيته. وترامى على ملذات نفسه، ومن ثم كان عبء

الحكم عليه ثقيلاً. ثم إنه كان ميَّالاً إلى الراحة بطبعه، وكانت تشغله تلك الأشياء التي تشغل الفنانين وتتألف منها مسراتهم وشقاواتهم، فكان ذلك مما حال بينه وبين القيام بأعباء الحكم على وجهه المطلوب.

ولكن أحدًا من الناس لم تضم نفسه هذا القدر من الحساسية، أو هذا الفيض الشاعري الدافق الذي ضمته نفس المعتمد؛ ثم إنَّ القدر أراد له أن يكون آخر أمير أندلسي الأصل، يحمل في جلالٍ علَم ثقافة فكرية وقومية، قُدِّرَ لها أن تنطوي ويذهب أمرها تحت ظل المرابطين الذين فتحوا البلاد»[١٤٣] (انظر المقدمة ص ٢٢-٢٤[*]).

(*)يقصد مقدمة الطبعة الأولى

obeikandl.com

(ج) غرناطة

ف٣١-أبو الفتوح الجرجاني، وأبو إسحاق الإلبيري

لم يتقدم الأدب العربي تقدمًا محسوسًا في غرناطة التي سيطرت عليها الطوائف البربرية، وأهم شخصية تستلفت الاهتمام فيها هو اليهودي ابن النَّغرلة، الذي كان يؤلف بالعبرية واجتهد في النهوض بالدراسات التلمودية. وفي ذلك العصر أقبل إلى غرناطة أبو الفتوح الجرجاني، وهو مغامر مشرقي نزل الأندلس في سنة ١٠١٥/٤٠٦. وكان فيلسوفًا فلكيًا يقول الشعر بين الحين والحين.

أقام الجرجاني حينًا عند مجاهد الصقلبي صاحب دانية، ثم قصد سرقسطة؛ حيث أقام في كنف المنذر بن هود ردحًا من الزمن؛ واستقر به النوى آخر الأمر في غرناطة؛ حيث ألقى دروسًا عن الشعر القديم وكتاب «الحماسة» خاصة. وقد اتهم في مؤامرة دبرت على باديس بن حبوس صاحب غرناطة، فقبض عليه وحبسه ثم قتله سنة ١٠٣٠/٤٢١ وأمر بدفنه إلى جانب أحمد بن عباس[١٤٤].

وقد خلف إسماعيل (صمويل)[١٤٥] بن النغدلة في الوزارة لبني زيري بن حبوس ابنُه يوسف، ولم تكن له كياسة أبيه في مصانعة المسلمين، فاستثار سخطهم عليه. وكان المتكلم بلسانهم في هذه الخصومة أبو إسحاق الإلبيري الفقيه العربي، وكان مغيظًا؛ لأنه لم يدرك في بلاط غرناطة المركز الذي كان يرى نفسه أهلاً له، وزاد في حنقه أن يوسف بن النغدلة أمر بنفيه من غرناطة، فانصرف إلى النسك والزهادة، ونظم في معتكفة قصيدة يهجو يوسف بن النغدلة، ويؤلب المسلمين وباديس بن حبوس على اليهود، قال فيها:

وَلا تَرفَعِ الضَّغطَ عَن رَهطِهِ ... فَقَد كَنَزوا كُلَّ عِلقٍ ثَمين

وَفَرِّق عِداهُم وَخُذ مالَهُم ... فَأَنتَ أَحَقُّ بِما يَجمَعون

وَلا تَحسَبَن قَتلَهُم غَدرَةً ... بَلِ الغَدرُ في تَركِهِم يَعبَثون

obeikandi.com

وَقَـدْ نَكَـثُوا عَهدَنَـا عِـندَهُم فَكَـيفَ تُـلامُ عَلى النَاكِثين
وَكَـيفَ تَكـونُ لَهُـم ذِمَّـةٌ وَنَحـنُ خُمـولٌ وَهُـم ظاهِـرون؟[146]

فالتهبت عواطف الناس سخطًا على اليهود، وتواثبوا بهم، فنهبوا ديارهم وقتلوا من ظفروا به منهم. وكان ابن النغدلة ممن لقى مصرعه في هذه المذبحة (٤٥٩/ ١٠٦٦).

وقد حفظ لنا المقري أشعارًا أخرى لأبي إسحاق الإلبيري، تتجلى فيها حكمته وعاطفته الدينية، وترجم له دوزي (إلى الفرنسية) مقتطفات كثيرة من شعره نورد منها:

وذي غـنى أوهمـتـه همـتـه أن الغـنى عـنه غـير منفصـل
يجـر أذيـال عجـبه بطـرا واخـتال للكـبرياء في الحلـل
بـزّته أيـدي الخطـوب بـزّته فاعـتاض بعـد الجديـد بالسـمل
فـلا تـثق بالغـنى فآفـته الـ فقـر وصـرف الـزمان ذو دول
كفـى بنـيل الكفـاف عـنه غـنى فكـن بـه الدهـرَ غـير محـتفل[147]

وقد زاره وهو على فراش الموت أحد وزراء غرناطة، فرأى ضيق مسكنه فقال له: «لو اتخذت غير هذا المسكن لكان أولى بك» فقال، وهو آخر شعر له:

قـالوا: ألا تسـتجيد بيـتـا تعجـب مـن حسـنه البـيوت؟
فقلـت: مـا ذلكـم صـوابًا عُـشٌّ كـثير لمـن يمـوت
لـولا شـتاء ولفـح قـيظ وخـوف لـص وحفـظ قـوت
ونسـوة يـبغين سـترا بنيـتُ بنـيان عنكـبوت[148]

أما بقية دول البربر التي قامت في ذلك الحين -في مالقة والجزيرة الخضراء وقرمونة واستجة والمدور ورندة وأركش ومورور وشريش- فلم تنفُق للأدب فيها سوق، ثم انتهى بها الأمر إلى الدخول في حوزة أصحاب إشبيلية.

(د) المرية

ف٣٢-الوزير أحمد بن عباس

استقل بالمرية أول انتثار الجماعة خيران الصقلبي، ثم خلفه على إمارتها زهير، وكان صقلبيًّا أيضًا. وقد تولى الوزارة له أحمد بن عباس وكان مخاصمًا لابن النغدلة -وزير بني زيري أصحاب غرناطة - لا تسكن العداوة بينهما. «وقد بذ الناس في وقته في أربعة أشياء: المال، والبخل، والعجب، والكتابة»[١٤٩]. وكان «جمّاعًا للدفاتر حتى بلغت أربعمائة ألف مجلد، وأما الدفاتر المخرومة فلم يوقف على عددها لكثرتها»[١٥٠]. ولكن غروره وصل به إلى حد الجنون، وهو القائل:

لي نفس لا ترتضي الدهرَ عمرًا ... وجميع الأنام طرًّا عبيدا
لو ترقّت فوق السماء محلا ... لم تزل تبتغي هناك صعودا
أنا مَن تعلمون شيدت مجدي ... في مكاني ما بين قومي وليدا

وقال أيضًا:

عيون الحوادث عني نيام ... وهضمي على الدهر شيء حرام

وذاع هذا البيت في الناس واستكروه، حتى قلب بعض الأدباء مصراعه الأخير فقال:

سيوقظها قدر لا ينام[١٥١]

وقد تحققت أمنية هذا الشاعر، إذ وقع ابن عباس أسيرًا بيد خصمه اللدود باديس بن حبوس صاحب غرناطة فقتله بيده في ٢٧ ذي القعدة ٤٢٧/١٠٣٥[١٥٢].

ف٣٣- المعتصم بن صمادح صاحب المرية وشعراء بلاطه

أما في المرية - حيث استبد بالأمر المعتصم بن معن بن صمادح وآله، وهم فرع من التُّجيبيين أصحاب سرقطة - فقد علا أمر الآداب والعلوم في هذه الدويلة، في

عهد محمد بن معن الملقّب بالمعتصم (٤٤٣/١٠٥١-٤٨٤/١٠٩١)، على الرغم من أن حدودها قد انكمشت في أيامه حتى صارت أضحوكة في أفواه أهل الأدب. وكان المعتصم نفسه مسالمًا لين الجانب محببًا إلى القلوب، راعيًا للآداب والعلوم موقرًا للدين وأهله، بارًّا بوزارئه، صفوحًا عن الهفوات، عادلاً في أحكامه، وقد أحاط نفسه بهالة من الشعراء أضفوا على دولته رونقًا جميلاً[١٥٣].

ومن أولئك الشعراء أبو الفضل جعفر بن أبي عبد الله محمد بن شرف البرجي[١٥٤] «الحكيم الفيلسوف» (٤٤٤/١٠٥٢-٥٣٤/١١٣٩)، وكان رجلاً واسع العلم استطاع أن يصل في بلاط المرية إلى مكان مرموق. وكان قد قصد أول أمره قصر محمد بن معن بن صمادح في زي تظهر عليه البداوة، وألقى بين يديه قصيدة مطلعها.

مطل الليلُ بوعد الفلق ... وتشكّى النجمُ طول الأرق
ضربت ريح الصبا مسك الدجى ... فاستفاد الروض طيب العبق
وألاح الفجر خدًّا خَجِلاً ... جال من رشح الندى في عرق
جاوز الليل إلى أنجمه ... فتساقطن سقوط الورق[١٥٥]

فاسترعى انتباه المعتصم وأهل المجلس فأقبلوا عليه، وكان ذلك أول صعود أمره.

وقد حسده بقية الشعراء لانفراده بالمكان الأحظى من نفس المعتصم، وكان من بين أولئك الحاسدين أبو عبد الله محمد بن معمر المالكي المعروف بابن أخت غانم[١٥٦] - وغانم خاله المنسوب إليه هو الإمام العالم أبو محمد غانم المخزومي، النحوي المشهور - وكان عارفًا بالكثير من كتب النحو والفقه والشريعة والطب، وكان يقول الشعر في يسر، وكانت له حافظة نادرة؛ فغاظه أن يبلغ البرجي هذه المكانة في ذلك الوسط الرفيع، وهو البسيط الأصل والمنبت[١٥٧].

وقد جرت بين الشاعرين لهذا نقائض فياضة بالسخر البارع اللاذع.

وتتواتر في كتب الأدب قصة عن المعتصم بن صمادح، تدل على عظيم تقديره للشعر وأهله؛ فقد وفد عليه البرجي مرة يشكو عاملاً ناقشه في قرية يحرث فيها، وأنشده الرائية التي مطلعها:

قامت تجر ذيول العصب والحبر ضعيفة الخصر والميثاق والنظر

إلى أن بلغ قوله:

لم يبق للجور في أيامهم أثر إلا الذي في عيون الغيد من حور

فقال له المعتصم: «كم في القرية التي تحرث فيها؟»، فقال: «فيها نحو خمسون بيتًا»، فقال له: «أنا أسوغّك جميعها لهذا البيت الواحد»؛ ثم وقّع له بها وعزل عنها نظر كل وال[١٥٨].

وقد ألّف ابن شرف مجموعين من الأمثال والحكم: أحدهما شعرًا والآخر نثرًا[١٥٩]، وقد حويا بين دفتيهما ما يشهد بسعة الاطلاع. ومن روائع حكمه:

- لتكن بقليلك أغبط منك بكثير غيرك، فإن الحيَّ برجليه - وهما ثنتان- أقوى من الميت على أقدام الحملة، وهي ثمان.

- رب سامح بالعطاء علي باخل بالقبول[١٦٠].

وممن اتصل بالمعتصم من شعراء ذلك العصر ابن الحداد الوادي آشي المتوفى عام ١٠٨٧/٤٨٠، وقد علت رتبته عنده حتى أسند إليه الوزارة وأحظاه. وقد هوى ابن الحداد صبية نصرانية كنى عن اسمها بنويرة - أو نويرية - وقال فيها شعرًا ينم عن عاطفة مشبوبة. وكانت تتنابه بين الحين والحين حالات من اليأس والتشاؤم، فيتحدث عن الزهد واعتزال الدنيا وأهلها، ومن ذلك قوله وقد تغيَّر قلب المعتصم عليه واضطر إلى اللحاق بثغر بني هود.

لزمت قناعتي وقعدت عنهم ... فلست أرى الوزير ولا الأميرا
وكنت سمير أشعاري سفاهًا ... فعدت لفلسفياتي سميرا[١٦١]

أو قوله:

سامح أخاك إذا أتاك بزلة ... فخلوص شيء قلما يتمكن
في كل شيء آفة موجودة ... إن السراج - على سناه - يدخن[١٦٢]

وقد غضب عليه المعتصم وأقصاه؛ لأنه - أي الشاعر - رماه بالبخل. ولم يكن المعتصم بالبخيل، إنما كان الكرم شيمته الحسنى[١٦٣]، كما تشهد بذلك قصائد شعرائه من أمثال عمر بن عبد الشهيد وأبي جعفر بن القراز والنّحلي وابن بليطة وغيرهم[١٦٤].

ولجأ إلى المعتصم كذلك نفر من شعراء غرناطة، لم يطيقوا العيش في ظل أمرائها من البربر الذين لم يزدانوا بعلم يوطئ لأهل الأدب أكنافهم. ومن أولئك ابن أخت غانم - الذي ألمنا بذكره - وأبو القاسم خلف بن فرج الإليبري المعروف بالسميسر، وكان «يانعة عصره وأعجوبة دهره» -كما يقول ابن بسّام، وله أشعار لحا فيها أمراء عصره وأقذع في هجوهم، كقوله:

نادِ الملوك وقل لهم: ... ماذا الذي أحدثتم؟
أسلمتم الإسلام في ... أسر العدا وقعدتم!
وجب القيام عليكم ... إذ بالنصارى قمتم
لا تنكروا شق العصا ... فعصا النبي شققتم

وقد ألّف كتابًا سماه «شفاء الأمراض في انتهاك الأعراض»، تناول فيه ما كان يدعيه أهل عصره من خصال لم تكن فيهم، ووضعهم موضعهم الصحيح[١٦٥].

وفي بلاط بني صمادح هؤلاء عاش أبو عبيد البكري الجغرافي المعروف، وسيرد الكلام عنه مع الجغرافيين (ف٩٥)؛ وكان شاعرًا فذًّا روي له شعر كثير

وخمريات تتحدث عن ميل إلى لذاذات العيش:

خليليَّ، إني قد طربت إلى الكاس ... وتقت إلى شم البنفسج والآس
فقوموا بنا نلهو ونستمع الغنا ... ونسرق هذا اليوم سرًّا من الناس
فليس علينا في التعلل ساعة ... وإن وقعت في عقب شعبان من باس[١٦٦]

ف٣٤-آل المعتصم

وكان بنو المعتصم شعراء مبرزين، ومنهم أبو جعفر الذي خاطب محبوبته بأبيات تفيض رقة وعذوبة:

كتبتُ وقلبي ذو اشتياق ووحشة ... ولو أنه يستطيع مرَّ يُسلِّم
جعلتُ سواد العين فيه سواده ... وأبيضه طرسًا وأقبلتُ ألثم
فخُيِّل لي أني أقبِّل موضعًا ... يصافحه ذاك البنان المسلَّم[١٦٧]

وكانت أم الكرام بنت المعتصم تقول الشعر كذلك، وكان بها هوى فتى من أهل دانية يسمى سَمّار، وقد قالت فيه:

يا معشر الناس ألا فاعجبوا ... مما جنته لوعة الحب
لولاه لم ينزل بدر الدجى ... من أفقه العلوى للترب
حسبي بمن أهواه لو أنه ... فارقني تابعه قلبي[١٦٨]

وعندما انقلب ملوك الطوائف على يوسف بن تاشفين، ومضوا يدبرون عليه، كان المعتصم من أكثرهم سعيًا في ذلك التدبير. فلما استولى يوسف على غرناطة واستنزل صاحبها الأمير عبد الله، ملك الخوف المعتصم، وسعى في كسب ود أمير المسلمين، وكان يكيد له بالأمس! فعجَّل بإرسال ابنه عبيد الله يهنئه بحصول غرناطة في يده، فقبض يوسف على عبيد الله وحبسه؛ فقال الفتى يشكو عناءه وضيق المحبس:

أبعد السنى والمعالي خمول ... وبعد ركوب المذاكي كُبول

ومن بعد ما كنت حرًّا عزيزًا ... أنا اليوم عبد أسير ذليل
حللت رسولاً بغرناطة ... فحل بها بي خطب جليل
ولُفِّفت إذ جئتها مرسلا ... وقد كان يكرم قبلي الرسول
فقدت المرية أكرم بها ... فما للوصول إليها سبيل[169]

وجَدَّ المعتصم في خلاص ابنه، فلم يسعفه به يوسف بن تاشفين إلا وهو - أي المعتصم - على فراش الموت. وقد طال مرضه، وحاصر المرابطون قصبة المرية - والرجل في فراش المرض- فقال: «لا إله إلا الله، نغَّصَ علينا كل شيء حتى الموت»[170]. وقد أدركته المنية قبل سقوط المرية في يد المرابطين بأشهر قلائل، وإلى جانبه الشاعر ابن عبادة.

وبعد سقوط المرية توجه أبناء المعتصم إلى الغرب، فأما عبيد الله فقد لجأ إلى أحد المرابطين وعاش في كنفه «لأذمّة كانت بينهما، إلى أن انقرضت مدته بين آسن وكاس»[171]. ولجأ «عز الدولة» إلى بجاية؛ حيث قضى بقية عمره في أمن ورضى بما قسمه له القدر. ويذكر الشاعر الإشبيلي ابن اللبَّانة أنه اجتمع مع عز الدولة هذا في بجاية وقال: «فإني رأيت منه خير من يجتمع به، كأنه لم يخلقه الله إلا للملك والرئاسة وإحياء الفضائل، ونظرت إلى همته تنمُّ من تحت خموله كما ينمُّ فرند السيف وكرمه من تحت صداه، مع حفظه لفنون الأدب والتواريخ، وحسن استماعه وإسماعه، ورقة طباعة ولطافة ذهنه».

وكان يقول الشعر، مفرجًا عن نفسه شاكيًا خمول أمره:

لك الحمد، بعد الملك أصبح خاملا ... بأرض اغتارب لا أمرُّ ولا أُحْلى
وقد أصدأت فيها الجذاذة منهلي ... كما نسيتْ ركض الجياد بها
فلا مسمعي يصغي لنغمة شاعر ... وكفِّيَ لا تمتد يومًا إلى بذل[172]

وأشعر بني صمادح جميعًا «رفيع الدولة» كما يقول نقاد العرب[173]، ومن مأثور شعره هذه الأبيات التالية التي وجه بها إلى صديق:

أبا العلاء كئوس الراح مترعة ... وللندامى سرور في تعاطيها
وللغصون تثنن فوقها طربًا ... وللحمائم سجع في أعاليها
فاشرب على النهر من صهباء صافية ... كأنما عصرت من خد ساقيها[١٧٤]

وقد قضى رفيع الدولة بقية أيامه في المغرب، مثله في ذلك مثل أخويه، متعرضًا لكثير من المهانة[١٧٥].

ولهم ابن أخ شاعر أيضًا، هو «رشيد الدولة» بن عبيد الله، ومن طريف نظمه قوله:

صبرًا على نائبات الدهر إن له ... يومًا كما فتك الإصباح بالظلم
إن كنت تعلم أن الله مقتدر ... فثق به تلق روح الله من أمم
وقلما صبر الإنسان محتسبًا ... إلا وأصبح في فضفاضة النعم[١٧٦]

وقد دخل في ذمار الموحدين، وأصبح من شعرائهم المأجورين. ويقول دوزي: «وإنه لمن عبث الأقدار أن نجد ذلك الأمير المتحدر من صلب ملك كان يرعى جيشًا من الشعراء ويمنحهم الأرزاق، ينتهي به الأمر إلى أن تهبط به المقادير إلى مستوى الشعراء المأجورين الذين يعيشون على أرزاق يتناولونها من سادتهم»[١٧٧].

(هـ) بلنسية ومرسية

ف٣٥-ابن وهبون-ابن لبون-الوقشي

ونذكر من أهل شرق الأندلس أبا محمد عبد الجليل بن وهبون المرسي، الذي تغنى بذكر وقعة الزلاقة (سنة ١٠٨٦/٤٧٩)؛ وكان صاحبًا لابن عمّار، فلما توفى قال فيه مرثية طيبة. كان ابن وهبون من فطاحل الشعراء وأهل الأدب، وقد مات قتيلاً على يد بعض جند النصارى وهو في طريقة من لورقة إلى مرسية[١٧٨].

ونذكر كذلك أبا عيسى بن لبون، وكان صاحبًا لقلعتي سجونتو ومرييطر، فلما أحس اقتراب السِّيد القمبيطور من بلاده وتوقع بلاءه، ترك بلاده لابن رزين صاحب «السهلة»[١٧٩] ونذكر أيضًا محمد بن علقمة (١٠٣٦/٤٢٨-١١١٥/٥٠٩) من أهل بلنسية وكان شاعرًا وناثرًا من طبقة عالية، وهو صاحب كتاب «البيان الواضح عن الملم الفادح» الذي قصَّ فيه أخبار بلده بلنسية في أيامه، ووصف ما حاق بها من البلاء على يد السِّيد القمبيطور[١٨٠].

وبينما كان «السِّيد» محاصرًا لسرقسطة (سنة١٠٩٤/٤٨٧)، قام الفقيه هشام بن أحمد الكناني الملقب بالوقشي -نسبة إلى البلد الذي ولد فيه وهو وقّش Huecas من أعمال طليطلة- على أسوار البلد وألقى مرثية مؤثرة بكي فيها مصاب بلنسية أثناء هذا الحصار المروع، ولم نجد أصل هذه المرثية، ولكنا وجدنا صورًا لها مكتوبة بحروف لاتينية فيما وجدنا من نسخ «تاريخ إسبانيا العام»[١٨٠].

وقد كان لهذه القصيدة وقعٌ شديد على قلوب البلنسيِّين، فصاروا يرددون قول صاحبها:

«إذا أنا مضيت يمينًا هلكت بماء الفيضان، وإذا ذهبت يسارًا أكلني السبع، وإذا مضيت أمامي غرقت في البحر، فإذا التفتُّ خلفي أحرقتني النار»[١٨٢].

وإزاء هذا البلاء المتواتر، ألحَّ أهل بلنسية على الوقشي في أن يكلم لهم القاضي أحمد بن جحاف -رئيس البلد إذ ذاك - في الاتصال بالقمبيطور وتسليم البلد له على شروط؛ ففعل، وسلم البلد، وأقيم الوقضي قاضيًا له[١٨٣].

هذا، وقد ضاع الأصل العربي لهذه المرثية، ولم يبقَ لنا إلا نصها مكتوبًا بحروف لاتينية في «تاريخ إسبانيا العام»، - كما قلنا - وقد درسها خليان ريبيرا وحاول أن يقرأها قراءة عربية، وأثبت أن نصها الذي بين أيدينا إنما هو تحوير لها في اللهجة الأندلسية الدارجة في القرن الخامس عشر الميلادي.

obeikandl.com

(و) بطليوس

ف٣٦-المظفر بن الأفطس

بين أيدينا من المعلومات عن إمارة بطليوس أقل مما بين أيدينا عن أي إمارة أخرى من إمارات الطوائف في ذلك العصر. كان أول من استبدَّ بأمرها مولى فارسي الأصل يسمى سابور (توفى في ١٠ شوال ٤١٣/ ٨ نوفمبر ١٠٢٢) وكان رجلاً أميًّا قام بأمر دولته ابن مسلمة (٤١٣ /١٠٢٢ -١٠٤٥/٤٣٧) مؤسس أسرة بني الأفطس (ومعناه بنو القرد)، وأصلهم من برابر مكناسة. وأكبر أمراء هذه الدولة المظفر محمد بن عبد الله بن الأفطس(١٠٤٥/٤٣٧-١٠٦٣/٤٤٥) والمتوكل أبو محمد عمر بن محمد بن الأفطس (١٠٦٧/٤٦٠-١٠٩٥/٤٨٨)، وفي عهدها بلغتِ الإمارة أوجها؛ والأول أخو مسلمة، والثاني ابن أخيه.

وقد ألف المظفر «الكتاب المظفري»، نسبة إلى اسمه. ويقول المقري: «كان المظفَّر أديب ملوك عصره غير مدّافع ولا منازَع، وله التصنيف الرائق والتأليف الفائق، المترجم «بالتذكرة» والمشتهر اسمه ايضًا «بالكتاب المظفري»، في خمسين مجلدًا يشتمل على فنون وعلوم من مغازٍ وسير، ومثل وخبر، وجميع ما يختص به علم الأدب. أبقاه الله للناس خالدًا. وتوفى المظفر سنة ١٠٦٧/٤٦٠ وكان يحضر العلماء للمذاكرة فيفيد ويستفيد، رحمه الله. وإلى المظفر أهدى عمر بن عبد البر (٣٦٨/ ٩٧٨-١٠٧٠/٤٦٣) مجموع مختاراته الفريدة المسمى «زينة المجالس» في مجلدات ثلاثة»[١٨٤].

أما عمر المتوكل بن الأفطس -الذي كان أول من عمل على الاستنجاد بالمرابطين- فهو الذي أهدى إليه ابن عبدون قصيدته المشهورة[١٨٥].

ف٣٧-ابن عبدون

عاش أبو محمد عبد المجيد بن عبدون في بلاط المتوكل بن الأفطس في بطليوس وكان من أكبر شخصيات هذه الدويلة، وأصله من «يابُرة» ثم قدم على المتوكل، وحظى عنده وصار له صاحبًا ورفيقًا، وأقامه كاتبًا له في سنة ٤٧٣/ ١٠٨٠ وتحكي الغرائب عن كثرة حفظه؛ حتى قال في شأنه أبو مروان عبد الملك بن زهر: «هذا أديب الأندلس وإمامها وسيدها في علم الآداب. هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون: أيسر محفوظاته كتاب الأغاني، وما حفظه في ذكاء خاطره وجودة قريحته؟»[١٨٦]. وكانت مجفوظاته بعض أدواته، فقد كان ذا فهم دقيق ومزاج مرهف، ومواهب ممتازة ركّبها الله في طبعه.

وعند ما طويت صفحة الدولة الأفطسية في ٤٨٧/١٠٩٤ بوفاة المتوكل، قال ابن عبدون درة شعره «القصيدة العبدونية» التي أذاعت صيته في العالم الإسلامي كله على نحو لم يسمع به قبل ذلك. ويقول عبد الواحد المراكشي في وصفها إنها: «قصيدته الغرا، لا بل عقيلته العذرا، التي أزرت على الشعر، وزادت على السحر، وفعلت في الألباب فعل الخمر، فجلّت عن أن تُسامَى، وأنفت من أن تضاهى، فقل لها النظير، وكثر إليها المشير، وتساوى في تفضيلها وتقديمها باقل وجرير...»[١٨٧].

وقد ترجمها إلى الفرنسية فانيان، وعنه نقل يونس بو يجيس مقتطفات منها إلى الإسبانية، ومطلعها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور؟

وإليك أبياتًا منها:

ما لِلّيالي أَقالَ اللهُ عَثْرَتَنا ... مِنَ اللّيالي وَخانَتها يَدُ الغِيرِ
في كُلِّ حينٍ لَها في كُلِّ جارِحَةٍ ... مِنّا جِراحٌ وَإِن زاغَت عَنِ النَّظَرِ
هَوَت بِـ «دارا» وَفَلّت غَربَ قاتِلِهِ ... وَكانَ عَضبًا عَلى الأَملاكِ ذا أَثَرِ

وَاسترجَعَت من «بَني ساسانَ» ما وَهَبَت ... وَلَم تَدَع لِبَني يونانَ مِن أَثَرِ
وَألحَقَت أُختَها طسمًا وَعادَ عَلى ... عادٍ وَجُرهُم مِنها ناقِضَ المِرَرِ[188]

ثم مضى يذكر الدول والأسر، والرجال الذين عدت عليهم صروف الدهر؛ حتى وصل إلى بني الأفطس - ومن أجلهم نظم قصيدته تلك يندب ما جرته عليهم يد الحدثان[189].

وتنم أبيات هذه القصيدة عن علم واسع واطلاع متبحر، (ولم يسبقه إلى مثلها من نوعها إلا ابن زيدون في قصيدته إلى ابن عبدوس). وقد كانت غزارة مادتها دافعة بالكثيرين إلى وضع المؤلفات في شرحها والتعليق عليها، وأكبر هذه الشروح وأذيعها «شرح ابن بدرون».

وقد درس دوزي هذا الشرح ونشره، ويرى هذا المستشرق الكبير أن المدائح الطنانة التي أسبغها على هذه «القصيدة» علماء فطاحل - من أمثال ابن خاقان وابن الخطيب - مبالغ فيها كل المبالغة، ولا تتفق مع حقيقتها. وقال: «إننا نجد في هذه المرثية» - إلى جانب بعض أبياتها ذات المعاني المبتكرة الموفقة - نجد براعة عظيمة، وإن التبحر في العلم ليتجلى فيها على نحو يفيض فيضًا؛ ذلك أن ابن عبدون لم يقنع بأن يجعل قصيدته مجرد صرخة محزون يعبر عن لوعته الصادقة العميقة، في أبيات ذات جرس جميل، وإنما مضى يعرض كبار الرجال الذين أخنى عليهم الدهر، وعظام الدول التي عصفت بها يد الحدثان، ويقدم لنا ثبتًا منظومًا بمصائب الدهر - من أيام دارا ملك الفرس إلى بني الأفطس أصحاب بطليوس - في أسلوب صحيح يخالطه تأنق بين الحين والحين.

وهو يجهد القارئ ويبعث إلى نفسه الملل بما يلجأ إليه من اللعب بالألفاظ وما يستعمله من الأحيلة عسيرة التصور. إننا لا نجد أنفسنا أمام قصيدة تثير كوامن المشاعر، وإنما حيال عرض موفق لعلم واسع مثقل بالزخارف والزينة»[190] وعلة ذلك

أن ابن عبدون لم يألم ألمًا صادقًا لما حل ببني الأفطس، ومصداق ذلك أنه دخل بعد ذلك في خدمة الأمير اللتوني سير بن أبي بكر، وعاش في ظلال المرابطين إلى آخر حياته، (توفى سنة ٥٢٩/١١٣٤). والبون شاسع بين هذا الحزن الفاتر المصطنع، وبين العواطف الصادقة المؤثرة التي تتجلى في قصائد المعتمد بن عباد الأخيرة.

وقد خلف لنا ابن عبدون أشعارًا وآثارًا أخرى، كالرسالة التي كتبها عن لسان سير بن أبي بكر تاشفين إلى علي بن يوسف بن تاشفين «يخبر فيها بفتح مدينة شنترين»[١٩١]، ورسالته التي وجه بها إلى أبي عبد الله محمد بن أبي الخصال «يخطب مودته ويستدعي من إخائه جدته»[١٩٢]، وغيرهما كثير. وقد وصف دوزي شعره في هذه الآثار بأنه: «زهور لدنة رقيقة ينبعث منها عطر جميل... وأشعار متناسقة فياضة بالتوفيق والجمال»[١٩٣].

وممن كتب للمتوكل بن الأفطس -وليوسف بن تاشفين من بعده كذلك- أبو بكر عبد العزيز بن القبطورنة، وقد روى له صاحب القلائد تلك الأبيات الحسان التي بعث بها إلى الوزير أبي الحسن بن سراج:

يا سيدي، وأبي: هدًى وجلالاً ... ورسولَ ودي إن طلبتُ رسولا
عرِّج بقرطبة إذا بلَّغتها ... بأبي الحسين، ونادِه تمويلا
فإذا سعدت بنظرة من وجهه ... فاهدِ السلام لكفة تقبيلا
واذكر له شوقي وشكرى مجملاً ... ولو استطعت شرحته تفصيلا
بتحية تهدى إليه كأنما ... جرت على زهر الرياض ذويلا[١٩٤]

ومنهم كذلك أخوه أبو الحسن بن سعيد بن القبطورنة، وقد أنشد له صاحب «القلائد»:

ذكرت سُليمي وحرُّ الوغي ... كجسمي ساعة فارقتها
وأبصرتُ بين القنا قدُّها ... وقد ملْنَ نحوي، فعانقتها[١٩٥]

وفي بلاط بني الأفطس كذلك عاش أبو محمد عبد الله بن سارة (توفى ٥١٧/ ١١٢٣)، وله مقطعات بديعة في موضوعات صغيرة -كالباذنجان والسفرجل والنارنج - ومن ذلك قوله في هذا الأخير:

أرى شجر النارنج أبدى لنا جَنًى ... كقطر دموع ضرجتها اللواعج
كرات عقيق في غصون زبرجد ... بكف نسيم الريح منها صوالج
نقبلها طوراً وطوراً نشمها ... فهن خدود بيننا ونوافج[١٩٦]

ومنهم كذلك أبو عبد الله بن البَيْن؛ قال صاحب الذخيرة: اجتمع مع ابن سارة، فقال له ابن سارة: أجز:

هذى البسيطة كاعب أبرادها ... حلل الربيع وحليها الأزهار

قال ابن البين:

وكأن هذا الجو فيها عاشق ... قد شفه التعذيب والإضرار
فإذا شكا فالبرق قلب خافق ... وإذا بكى فدموعه الأمطار
فمن أجل ذلة ذا وعزة هذه ... تبكي السماء ويبسم النوار[١٩٧]

ولنختم كلامنا عن شعراء غرب الأندلس بذكر عبد الرحمن بن مُقانا الأُشْبُوني، صاحب المديح الذائع في إدريس بن يحيى بن علي بن حمود صاحب مالقة الذي يقول فيه:

قد بدا لي وضحُ الصبح المبين ... فاسقنيها قبل تكبير الأذين
نثر المزجُ على مَفْرقها ... دراً عامت، فعادت كالبرين
مع فتيانٍ كرام نجُبٍ ... يتهادون رياحين المجون
شربوا الراح على خدٍّ رشا ... وَرَّدَ الوردُ به والياسمين
وجلّت آياته عامدة ... سبج الشعر على عاج الجبين
فانثنى غصناً على دعص نقا ... وبدا ليل على صبح مبين[١٩٨]

(ز) سرقسطة

ف٣٨ -ابن باجة

لدينا من أخبار بني هود في سرقسطة طائفة طيبة عن العلوم في دولتهم (انظر ف١٣٣)، أما أخبار الشعر والشعراء في بلاطهم فقليلة، باستثناء رجل مثل اليهودي أبي الفضل حسداي وزير المؤتمن بن هود، وكان له اهتمام كبير بالعلوم والطب والشعر والموسيقى.

وسندع - إلى حين - ابن جبيرول Avicebro'n وكان شاعرًا فيلسوفًا يهوديًا، لجأ فترة من الوقت إلى بلاط سرقسطة، ونجتزئ هنا بذكر يحيى الجزار، وأبي بكر محمد بن باجة التجيبي المعروف بابن الصائغ، وهو فيلسوف ممتاز(انظر ١٠٦) وموسيقى جليل ومؤلف موشحات وآثار شعرية أخرى. ومما يؤثر عنه أن الموت عدا على صاحب له فقضى ليلة كاملة عند قبره، وكان يعلم -لمعرفته بالفلك - أن القمر سيُخْسف تلك الليلة، فنظم بضعة أبيات، وقبل أن يحين موعد استتار القمر بلحظات أنشدها بلحن محزن يفيض شجوًا ولما حضرته الوفاة كان ينشد:

أقول لنفسي حين قابلها الردى ... فراغت فرارًا منه يُسْرَى إلى يُمنى:
قِري، تحملي بعض الذي تكرهينه ... فقد طالما اعتدت الفرار إلى الأهنى[٢٠٠]

٤عصر المرابطين

ابن خفاجة الشقري- ابن الزقاق- أبو الصلت أمية الداني

ف٣٩

يعتبر عصره سيادة المرابطين على الأندلس عصر تأخر وانكماش للثقافة الأندلسية، فقد كان يوسف بن تاشفين - أول أمراء هذه الدولة - لا يكاد يفقه العربية، أما خلفاؤه «فلم تلبث الثقافة الأندلسية أن غلبتهم على أمرهم، فأصبحوا أقرب إلى الأندلسيِّين منهم إلى الأفارقة» كما يقول غرسية غومس: وتولى الكتابة عنهم نفر من أهل الأدب الأندلسين، من أمثال ابن عبدون، وبني القبطورنة، وابن أبي الخصال (المتوفى عام ٥٤٠/١١٤٥)، والصيرفي (المتوفى عام ٥٧٠/١١٧٤).

ومن أعلام من ظهر في ذلك العصر ابن خفاجة وابن أخته ابن الزقاق.

أما ابن خفاجة الشقري (٤٥٠/١٠٥٨-٥٣٣/١١٣٨) فقد وصفه ابن سعيد بقوله: «شاعر الأندلس في وصف الأزهار والأنهار وما أشبه»[٢٠١]. وقد لقبه النَّاس بالجنَّان، لكثرة ما وصف الرياض، وإليك نموذجًا من شعره:

للـــه نهـــر ســـال في بطحـــاء	أشـهى ورودًا مـن لمـى الحسـناء
مـــتعطف مـــثل الســـوار كأنـــه	والزهـــر يكـــنفه مجـــر سمـــاء
قـــد رق حـــتى ظُـــن قرصًـــا مفـــرغًا	مـــن فضـــة في بـــردة خضـــراء
وغـــدت تحـــف بـــه الغصـــون كأنهـــا	هُـــدُبٌ تحـــف بمقلـــة زرقـــاء
ولطالمـــا عاطيـــت فـــيه مدامـــة	صـفراء تخضـب أيـدي النـدماء[٢٠٢]

ومن المشهور المتداول قوله يتغزل:

غزالـــيةُ الألحـــاظ ريمـــية الطَّلـــي	مُدامـــية الألمـــى حبابـــية الـــثغر
تـــرنح في مشـــية ذهبـــية	كمـا اشـتبكت زُهـرُ النجوم على
وقـد خلعـت لـيلاً علينـا يـد الهـوى	رداء عـناق مزقـته يـد الفجـر[٢٠٣]

ويقول غرسية غومس في «روضيات» ابن خفاجة: «إنها سائغة بديعة، تصدر عن طبع فني لماح، فتبدو وكأنها مشاهد خيالية، أو مجالس أنس خمرية؛ ويمكن القول بأنه سبق بها شعراءنا في وصف الطبيعة على النحو الذي نعرفه وقد كان أثر طريقة ابن خفاجة عظيمًا بعيدًا، حتى لنلمس آثار هذا «الأسلوب الخفاجي» إلى نهاية أعصر غرناطة».

وأما ابن الزقاق، فالسِّر في براعته يرجع إلى تلك الألوان الرقيقة التي يلجأ إليها ليغير من صور التشبيهات التي ملها النَّاس لكثرة تواردها، «فتلطف لذلك في أن يأتي به أي بالمعنى في منزع يصيِّر خَلْقَهُ في الأسماع جديدًا، وكليله في الأفكار جديدًا، فأغرب أحسن إغراب، وأعرب عن فهمه بحسن تخيله أنبل إعراب» -كما يقول الشقندي[٢٠٤].

ويعتبر كلا الشاعرين - ابن خفاجة وابن الزقاق - الذروة العليا للشعر القديم المجدَّد، مثلهما في ذلك مثل جُنْجُرَه في الأدب الإسباني، وليس بعدهما إلا تقليد أو انحدار[٢٠٥].

أما ابن الزقاق (١٠٩٦/٤٩٠-١١٣٥/٥٣٠)-ابن أخت ابن خفاجة فله خمريات بديعة، كقوله:

أديراها على الروض المندَّى	وحكم الصبح في الظلماء ماضي
وكاس الراح تنظر عن حباب	يذوب لنا عن الحدق المراض
وما غربت نجوم الأفق لكن	نُقلن من السماء إلى الرياض[٢٠٦]

وإلى جانب نفر غفير من الشعراء المحدثين - من أمثال ابن بقى القرطبي (توفى ١١٤٥/٥٤٠) صاحب الغزل الرقيق[٢٠٧]، والأعمى التطيلي[٢٠٨] (توفى ١١٢٦/٥٢٠) وقد عاش في إشبيلية وعلا أمره فيها - ظهر نفر من الزجالين والوشاحين وأصحاب الشعر الذي لا احتشام ولا عفة فيه، كنزهون بنت القلاعي تلميذة المخزومي[٢٠٩]

التي كانت تعارض أبا بكر بن سعيد الوزير الغرناطي معارضات تنم عن ذكاء، والكتندي[٢١٠] الذي أكثر من التغني بجمال الوادي الكبير نهر إشبيلية، وغيره كثيرون ممن سبقوا ابن قزمان إلى أفكاره ومعانيه؛ وسندرسها فيما بعد عند إلمامنا بأزجاله.

ويمتاز هذا العصر بظاهرة أدبية أخرى جديرة بالذكر، وهي هجرة الكثيرين من أهل العلم والأدب من الأندلسيين إلى المشرق، حاملين معهم علومهم وثقافاتهم؛ ومن أمثلة ذلك: أبو الوليد الطرطوشي (ف٥٦)، وأبو الصلت أمية الداني (٤٦٠/ ١٠٦٧-١١٦٥/٥٦١)[٢١١] الذي خرج إلى المشرق وتجلت مواهبه الأدبية في الإسكندرية ومصر وتونس، ومن أمثلة شعره قوله في مجمرة طيب:-

ومحرورة الأحشاء لم تدر ما النوى ... ولم تدر ما يلقى المحب من الوجد
إذا ما بدا برق المدام رأيتها ... تثير غمامًا في النديِّ من الندّ
ولم أر نارًا كلما شب جمرُها ... رأيت الندامى منه في جنة الخلد[٢١٢]

ولأبي الصلت مجموع من مختارات شعر الأندلسيين ضاهى به «يتيمة الدهر» للثعالبي، وله «الرسالة المصرية» ومؤلفات أخرى كثيرة في الطب والفلك والموسيقى والهندسة والمنطق (ف١٠٤).

بيد أن الاهتمام الأكبر اتجه في هذا العصر إلى مجموعات مختارات النظم والنثر، كما نرى في «ذخيرة» ابن بسام (ف٩٠) و «قلائد العقيان» لابن خاقان (ف٩١).

٥ـ عصر الموحدين

أبو جعفر بن سعيد - وحفصة الركونية - حمدة بنت زياد المؤدب - ابن زهر - ابن صفر - ابن سهل - صفوان بن إدريس - أبو البقاء الرندي - ابن الأبار - أبو الحجاج البيَّاسي - علي بن سعيد المغربي

ف٤٠

اضمحلَّ سلطان المسلمين في شبه الجزيرة اضمحلالاً واضحًا خلال عصر الموحدين، وخفت في أثنائه قوةُ الأثر الذي كان للشرق على الأندلس، وتلاشت السياسة التقليدية التي عرفها الأندلس الإسلامي طوال تاريخه قبل ذلك، وهي سياسة التسامح بين المسلمين والنصارى، وبدأ المستعربون يتطلعون إلى الوثوب بالمسلمين[٢١٣]، وزادت أزمتهم حدة مع الزمن، وعندما توالت انتصارات النصارى على مسلمي الأندلس واستولوا منهم على المعاقل واحدًا بعد واحد، أصبح معتمد الأندلسيين على الأمداد المغربيَّة؛ وكانت نتيجة ذلك أن أهل المغرب نظروا إلى الأندلسيين نظرة الاستصغار والاستضعاف، وانبرى الأندلسيون ينتصفون لأنفسهم، ورسالة أبي الوليد الشقندي[٢١٤] إن هي إلا مظهر لهذا المنزع عند الأندلسيين.

وقد مضى الأندلسيون خلال هذا العصر في دراسة الفلسفة والعلوم قُدمًا، وأنشئوا في ميدان الفن عمائر جليلة ذات خطر، كالمنارة الرائعة التي عرفت فيما بعد بالجيرالدا (la Geralda)[٢١٥] في إشبيلية، وكذلك استمر الاهتمام بالشعر والحماسة له، وكان خلفاء الموحدين إذا ألموا بالأندلس جلسوا للشعراء يستمعون لأمداحهم وكانت كثيرة جدًّا؛ حتى لقد حكى صاحب «كتاب روح الشِّعر ودوح الشجر» وهو الكاتب أبو عبد الله محمد بن الجلاب الفهري، أن أمير المؤمنين يعقوب المنصور لما قفل من غزة الأراكة (الأرك) المشهورة، وكانت يوم الأربعاء ٩ شعبان سنة ٥٩١/١١٩٤، وَرَدَ عليه الشعراء من كل قطر يهنئونه، فلم يتمكن

لكثرتهم أن ينشد كل إنسان قصيدته، بل كل يختص منها بالإنشاد البيتين والثلاثة المختارة، فدخل أحد الشعراء فأنشده:

ما أنت في أمراء الناس كلّهم ... إلا كصاحب هذا الدِّين في الرسل
أحييت بالسيف دين الهاشمي كما ... أحياه جدك عبد المؤمن بن علي

فأمر له بألفي دينار، ولم يصل أحدًا غيره لكثرة الشعراء، وأخذًا بالمثل: «منعُ الجميع أرضى للجميع». قال: «وانتهت رقاع القصائد وغيرها إلى أن حالت بينه وبين من كان أمامه لكثرتها»[٢١٦].

وممن ظهر أمره من شعراء هذا العصر وعلا نجمه في بلاد الموحدين أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي (المتوفى سنة ١١٦٣/٥٥٩) وهوَ من تلاميذ ابن خفاجة. وكان يمتاز بخلق سمح جميل وذهن دقيق، وكان يؤثر الدَّعة والراحة على متاعب الاضطلاع بشئون الدولة، وكان مولعًا بحفصة بنت الحاج الشاعرة الغرناطية ذائعة الصيت الملقبة بالرُّكونية، وهي نسبة أبيها، وكانت تحتل في عصر الموحدين مكانة ولأدة في قرطبة بني جهور. وكان ولعه بها سبب موته.

استمتع أبو جعفر وحفصة بهواهما زمنًا، وأفصح كل منهما عن مشاعره في شعر كثير. وبعض أبيات حفصة تنم عن روح تهكم فكه لطيف. من ذلك أن أبا جعفر قال الأبيات التالية بعد أن نعم بليلة مع صاحبته في خميلة بحور مُؤمَّل:

رعى الله ليلاً لم يُرع بمذمّم ... عشية وارانا بحور مؤمل
وقد خفقت من نحو نجد أريجةٌ ... إذا نفحتْ جاءت بريا القرنفل
وغرد قمري على الدوح وانثنى ... قضيب من الريحان من فوق جدول
يُرى الروضُ مسرورًا بما قد بدا له ... عناق وضم وارتشافُ مقبل[٢١٧]

فأجابته حفصة بأبيات تدعوه فيها إلى ترك التحليق مع الخيال والهبوط إلى

الحقيقة الواقعة:

لعمركَ ما سرّ الرياض بوصلنا ... ولكنّه أبدى لنا الغلّ والحسّد
ولا صفّق النهرُ ارتياحًا لقربنا ... ولا غرّد القمريّ إلّا لما وجد
فلا تحسن الظنّ الّذي أنت أهله ... فما هو في كلّ المواطن بالرشد
فما خلت هذا الأفق أبدى نجومهُ ... لأمرٍ سوى كيما تكون لنا رصَد[٢١٨]

ويُنسب إلى الركونية هذان البيتان:

أغار عليك من عيني رقيبي ... ومنك ومن زمانك والمكان
ولن أني خبأتك في عيوني ... إلى يوم القيامة ما كفاني[٢١٩]

ويشاء القدر أن يتعلق بحفصة كذلك ابن للخليفة عبد المؤمن يسمى «أبو سعيد» وكان واليًا على غرناطة، وكان أبو جعفر لا يوقره ويجاهر بالزراية به[٢٢٠].

ثم خرج من غرناطة، واشترك في تدبير على الموحدين أحكمه نفرٌ من أصحاب محمد بن مردانيش المنتزى على الموحدين في بلنسية، وكان الإسبان يسمونه بـ «الريّ لوبو» أي «الملك لُبْ». وقد انكشف أمر هذه المؤامرة وأبو جعفر في مالقة يهمُّ بركوب البحر إلى بلنسية، فقبض عليه وأودع السجن ثم قتل سنة ١١٦٣/٥٥٩ وقد زاره في محبسه قبل قتله صديق له، فدمعت عيناه حينما رآه مكبولاً فقال له: «أعليَّ تبكي بعدما بلغت من الدنيا أطايب لذاتها، فأكلت صدور الدجاج، وشربت في الزجاج، ولبست الديباج، وتمتعت بالسراري والأزواج، واستعملت من الشمع السراج الوهاج، وركبت كل هِمْلاج؟ وها أنا في يد الحجاج، منتظرًا محنة الحلاج، قادم على غافر لا يحتاج، إلى إعذار ولا احتجاج». قال ابن عمه الذي سمع هذه المقالة: «أفلا يؤسف على من ينطق بمثل هذا الكلام ويفقد!»[٢٢١] وعندما بلغ حفصة[٢٢٢] خبر صاحبها لبست الحداد وحزنت عليه حزنًا شديدًا، وجعلت تنحي على نفسها باللائمة أن كانت سبب هلاك هذا المسكين.

ويغلب أن حمدة بنت زياد المؤدِّب عاشت في ذلك العصر، وكانت تلميذة للبراق ولقيت شهرة عظيمة في المشرق خاصة، ومن أبياتها التي طارت كل مطار في الأندلس قولها:

ولما أبى الواشون إلا فراقنا ... وليس لهم عندي وعندك من ثار
وشنوا على أسماعنا كل غارة ... وقلّت حُماتي عند ذاك وأنصاري
غزوتهم من ناظريك وأدمعي ... ومن نفسي بالسيف والسيل والنار[٢٢٣]

وتنسب هذه الأبيات في بعض الأحيان لأختها زينب.

ف٤١- ابو بكر محمد بن زهر (٥٠٧/١١١٣-٥٩٦/١١٩٩)

من سلالة دوحة بني زُهر التي أنجبت نفرًا من مشاهير الأطباء. برَع أبو بكر في نظم الموشحات، وله كذلك شعر جيد، كأبياته التي يصف فيها فعل الخمر في الرءوس، ومنها هذه الأبيات التي أوصى أن تكتب على قبره:

تأمل بحقك يا واقفًا ... ولاحظ مكانًا وقعنا إليه
ترابُ الضريح على وجنتي ... كأني لم أمشِ يومًا عليه
أداوي الأنام حذار المنون ... وها أنا قد صرت رهنًا لديه[٢٢٤]

وكان ابن جبير الرحالة شاعرًا محسنًا يقول المقطعات الجميلة بين الحين والحين، وشعره ذو معان فلسفية كقوله:

الناس مثل ظروفٍ حشوها صبر ... وفوق أفواهها شيء من العسل
تفر ذائقها حتى إذا كشفت ... له تبين ما تحويه من دخل[٢٢٥]

وتحفل كتب الأدب بذكر نفر غفير من شعراء هذا العصر نذكر منهم ميمون بن الخبازة[٢٢٦]، ويحيى بن مُجْبَر (توفى ٥٨٧/١١٩١) المسمى ببحتري الأندلس[٢٢٧]، وأبا أحمد بن حيُّون[٢٢٨]، وعبد البر بن فرسان[٢٢٩]، ويحيى بن غانية الميورقي[٢٣٠]، وابن الرفاء[٢٣١] الذي أبدع في وصف نافورة، ومحمد بن صفر[٢٣٢] الذي تغني بجمال وادي

المَرِيَّة وصور المد في مدخل «الوادي الكبير» بقوله:

حيث الجزيرة والخليج يحفها يشكو إليها، كي تجيب جواره
شق النسيم عليه جيب قميصه فانساب من شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت وُرق الحمام بدوحة هزءًا، فضم من الحياء إزاره

وممن استلهم «الوادي الكبير» طرفًا من شعره إبراهيم بن سهل المتوفى سنة ٦٤٩/١٢٥١ وكان يهوديًا فأسلم، وأدرك شهرة عظيمة؛ لأنه «اجتمع فيه ذُلان: ذل العشق وذل اليهودية»، قال ابن سهل:

وكأنما الأنشام فوق جنانه أعلامُ خز فوق سُمرٍ رماح
لا غرو أنْ قامت عليه أسطرًا لما رآته مُدَرَّعًا لكفاح
وإذا تتابع موجُه لدفاعها مالت إليه، وظل حلف صياح(٢٢٣)

ووصف الرصافي (المتوفى ٥٧٢/١١٧٧) النهر في أبيات رائقة:

ومهدل الشطين تحسب أنه مُتسيِّل من درة لصفائه
فاءت عليه من الهجيرة سرحة صدئت لفيئتها صفيحة مائه
وتراه أزرق في غلالة سندس كالدارع استلقى لظل لوائه(٢٢٤)

أما أبو بحر صفوان بن إدريس (٥٦١/١١٦٥-٥٩٨/١٢٠٢) صاحب «زاد المسافر»، فقد كان شاعرًا محسنًا يهدي مقطعات نسيبه إلى من يتغزل فيه، كقوله:

يَا حُسنَهُ وَالحُسنُ بَعضُ صِفَاتِهِ وَالسِّحرُ مَقصُورٌ عَلَى حَرَكَاتِهِ
بَدرًا لَوَ انَّ البَدرَ قِيلَ لَه اقتَرِح امَلاً لَقَالَ أَكُونُ مِن هَالاتِهِ
وَإذا هِلالُ الأُفقِ قَابَلَ وَجهَهُ أَبصَرتَهُ كَالشَّخصِ فِي مِرآتِهِ
وَالخَالُ يَنقُطُ فِي صَفِيحَةِ خَدِّهِ مَا خَطَّ حِبرُ الصُّدغِ مِن نوناتِهِ
صَاحبتُهُ، والليل يدني تحته نارين من نفسي ومن وجناته
فَضَمَمتُهُ ضَمَّ البَخِيلِ لِمَالِهِ أَحنُو عَلَيهِ مِن جَمِيعِ جِهَاتِهِ

أوثقـتُهُ فـي ساعِدَيَّ لأنّـهُ ... ظَبيٌ خَشِيتُ عَلَيهِ مِن فَلَتاتِهِ
وَأبَى عَفَافِي أن أُقَبِّلَ ثَغرَهُ ... وَالقَلبُ مَطوِيٌّ عَلَى جَمَرَاتِهِ
فَاعجَب لِمُلتَهِبِ الجَوَانِحِ غُلَّةً ... يَشكُو الظَّمَا وَالمَاءُ فِي لَهَوَاتِهِ[٣٣٥]

ف٤٢- أبو البقاء الرندي

وإلى جانب من ذكرنا كان هناك شعراء تروى لهم الأبيات في كتب الأدب، ولكن طبقاتهم في الشعر لم تكن عالية، ومن هؤلاء محمد بن عبد الرحمن الغساني (٥٦٨/١١٧٢-٦١٩/١٢٢٢) الذي قال شعرًا كثيرًا في أنساب العرب أورده ابن الخطيب في «الإحاطة»[٣٣٦]، وأبو القاسم إبراهيم بن فَرْقد (الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثاني عشر) وهو من مَوْرور، وله شعر كثير وصف به قرطبة ومسجدها الجامع وإشبيلية ومورور، وله كذلك قصائد يبكي فيها مصير الأندلس[٣٣٧]، وأبو الربيع بن سالم[٣٣٨] (٥٦٥/١١٦٩-٦٣٤/١٢٣٦) وكان تلميذًا لابن زهر وقد ضاع معظم شعره، وقد اشتهر أمره ببلاغته ومعرفته بالحديث.

وأولى أولئك جميعًا بالذكر أبو البقاء صالح بن شريف الرندي، وقد ظهر أمره وبقى ذكره بقصيدة يندب فيها ما اقتطعه من الأندلس فرندندو الثالث وجاقمه الأول (Jaimel)، وإليك أطرافًا منها:

لِكُلِّ شَيءٍ إذا مَا تَمَّ نُقصَانُ ... فَلا يُغَرُّ بِطِيبِ العَيشِ إنسَانُ
هِيَ الأُمُورُ كَمَا شَاهَدتُهَا دُوَلٌ ... مَن سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتهُ أَزمَان
وَهَذِهِ الدَّارُ لا تُبقِي عَلَى أَحَدٍ ... وَلا يَدُومُ عَلَى حَالٍ لَهَا شَانُ
أَينَ المُلُوكُ ذَوُو التِّيجَانِ مِن يَمَنٍ؟ ... وَأَينَ مِنهُم أَكَالِيلٌ وَتِيجَانُ؟
وَأَينَ مَا شَادَهُ شَدَّادُ فِي إِرَمٍ؟ ... وَأينَ مَا سَاسَهُ فِي الفُرسِ سَاسَانُ؟
دَهَى الجَزِيرَةَ أَمرٌ لا عَزَاءَ لَهُ ... هَوَى لَهُ أُحُدٌ وَانهَدَّ ثَهلانُ
أَصَابَهَا العَينُ فِي الإسلامِ فَارتَزَأَت ... حَتَّى خَلَت مِنهُ أَقطَارٌ وَبُلدَانُ
فَاسأَل بَلَنسِيَةً مَا شَأنُ مُرسِيَةٍ ... وَأينَ شَاطِبَةٌ أَم أينَ جَيَّانُ

وَأَيــنَ قُرطُــبة دارُ العُلُــومِ فَكَــم ... مِـن عـالِمٍ قَـد سَـما فِـيها لَـه شَـان

أَيـنَ حمـص وَمَـا تَحويـهِ مِـن نُـزَهٍ ... وَنَهـرُها العَـذبُ فَـيّاضٌ وَمَـلآنُ

بـالأمسِ كـانُوا مُلُوكـاً فِـي مَنازِلِهم ... وَالـيَومَ هُـم فِي بِـلادِ الكُفـرِ عُـبدانُ

فَلَـو تَـراهُم حَـيارى لا دَلِـيلَ لَهُـم ... عَلَـيهِم مِـن ثِـيابِ الـذُلِّ أَلـوانُ

وَلَـو رَأَيـت بُكـاهُم عِـندَ بَـيعِهِمُ ... لَهـالَكَ الأَمـرُ وَاسـتَهوَتكَ أَحـزانُ

يــا رُبَّ أمٍّ وَطِفــلٍ حِـيلَ بيــنَهُما ... كَمــا تُفَــرَّقُ أَرواحٌ وَأَبــدانُ

وَطفلَـة مِـثل حُسـنِ الشَـمسِ إِذ بـرزت ... كَأَنَّمــا هــيَ يــاقُوتٌ وَمَـرجانُ

لِمثلِ هَـذا يَـبكِي القَلـبُ مِـن كَمَـدٍ ... إِن كـانَ فِي القَلـبِ إِسـلامٌ وَإِيمـانُ(٢٣٩)

وقد وردت هذه القصيدة كذلك في «أزهار الرياض» للمقري (القاهرة ١٩٣٩) جـ١، ص٤٧-٤٩؛ وجاء اسم الرندي هناك: أبو الطيب صالح بن شريف.

وقد طار ذكر هذه القصيدة وتداولها الناس، وبلغ من إعجابهم بها أن أضافوا إليها فيما بعد فقرات عن ضياع مدن أندلسية أخرى استغلبها النصارى بعد ذلك مثل بَسْطَة وغرناطة. ويقول المقري في شأن هذه الزيادات: «ومن له أدنى ذوق عَلِم أن ما زيد فيها من الأبيات ليست تقاربها في البلاغة؛ وغالب ظني أن تلك الزيادة لما أُخِذَت غرناطة وجميع بلاد الأندلس، إذ كان أهلها يستنهضون همم الملوك بالمشرق والمغرب، فكأن بعضهم لما أعجبته قصيدة صالح بن شريف زاده فيها تلك الزيادات»(٢٤٠).

وقد ترجم خوان فاليرا هذه القصيدة إلى شعر إسباني في نفس البحر الشعري الذي صاغ فيه شاعر إسباني هو خُورْخِه مانريك Jorge Manrigue قصيدة مشابهة لها في الروح -في رأي فاليرا - وقد صاغها في قالب الفقرات Coplasp ؛ بيد أن المدقّق يستبين أن قصيدة الرندي لا تشبه قصيدة مانريك إلا في ترجمة فاليرا الشعرية البديعة فحسب(٢٤١)، أما الأصل العربي فبعيد عن ذلك. وعلى من يريد أن يدرس هذا الموضوع أن يفعل ذلك والأصل العربي بين يديه.

obeikandi.com

ف٤٣ -ابن الأبار

يقول غرسية غومس: «وكان من الدلائل الواضحة على اضمحلال الأندلس مغادرة الكثيرين من أعلامه إياه إلى غير رجعة. فلم يعد الأندلسيون يخرجون إلى المشرق لطلب العلم ثم يعودون محمَّلين بذخائر علومه، كما كانوا يفعلون قبل ذلك، وإنما أصبحوا يبرحون الأندلس بزاد حافل من المعارف الأندلسية وينشرونها في أقطار نائية.

وهذا ما وقع لرجال كأبي الحسين بن جبير (وقد عاد إلى الأندلس) والصابوني والششتري، ومحي الدين بن عربي، وهو أهم هؤلاء جميعًا. وقد لجأ إلى بلاط الحفصيِّين في تونس نفر من علماء الأندلس وشعرائه مثل حازم القرطاجني (٦٠٨/ ١٢١١-٦٨٤/١٢٨٥) صاحب «القصيدة المقصورة» (التي قام على شرحها الشريف الغرناطي (٦٩٧/١٢٩٧-٧٦١/١٣٥٩) وهي مرثية مشبوبة العاطفة للأندلس تتضمن ذكريات كثيرة عما كان للناس في نواحي مرسية وقرطاجنة من مسرة ومتاع. ومن أولئك اللاجئين إلى تونس أبو الحجاج البياسي (٥٧٣/١١٧٧-٦٥٣/١٢٥٥) وكان لغويًّا مؤرخًا شاعرًا ذا إلمام نادر بما قالته العرب من شعر في الجاهلية والإسلام؛ حتى ليقال إنه كان يحفظ «حماسة» الطائي و«ديوان» المتنبي وكل ما قاله الستة المتقدمون من شعراء الجاهلية، وغير ذلك كثير. وقد وضع كتابًا سماه «الحماسة» ضمنه الكثير من الحكايات والأشعار وأخبار الشعراء وما إلى ذلك، وأورد ابن خلكان أطرافًا منه.

وأهم أولئك جميعًا أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الأبار القضاعي، فقد وصل إلينا من شعره أبيات جميلة رقيقة في النسيب، وقصيد ذائعة الصيت ألقاها بين يدي أبي زكريا بن أبي حفص، وكان قد قصده في سفارة أرسلها الأمير «زيان بن أبي الحملات» الموحدي صاحب بلنسية في ذلك الحين، وكان صاحب

برشلونة قد ألح عليها بالحصار، قال فيها:

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلِ اللهِ أندلُسَا ... إنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنْجاتِها دَرَسَا
وَهَبْ لَهَا مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ مَا الْتَمَسَتْ ... فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عِزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسَا
وَحَاشِ مِمَّا تُعانِيهِ حُشَاشَتَهَا ... فَطَالَمَا ذَاقَتِ البَلْوَى صَبَاحَ مِسَا
يَا لِلْجَزِيرَةِ أَضْحَى أَهلُهَا جُزُرًا ... لِلحَادِثَاتِ وَأَمْسَى جَدُّهَا تَعَسَا
فِي كُلِّ شَارِقَةٍ إِلْمَامُ بَائِقَةٍ ... يَعُود مَأتَمُهَا عِندَ العِدَى عُرُسَا
تَقَاسَمَ الرُّومُ لا نَالَتْ مَقَاسِمَهُمْ ... إلا عَقَائِلَهَا المَحْجوبَةَ الأُنُسَا
وَفِي بَلَنْسِيَة مِنْهَا وَقُرْطُبَةٍ ... ما يَنْسِفُ النَّفسَ أَو ما يَنزِفُ النَّفَسَا
مَدَائِن حَلَّهَا الإِشْرَاكُ مُبْتَسِمًا ... جَذْلانَ وارتَحَلَ الإِيمَانُ مُبْتَئِسَا
وَصَيَّرَتْهَا العَوَادِي العَابِثَاتُ بِهَا ... يَسْتَوْحِشُ الطَّرْفُ مِنْهَا ضِعْفَ مَا
فَمِنْ دَسَاكِرَ كَانَتْ دُونَهَا حَرَمًا ... وَمِنْ كَنَائِسَ كَانَتْ قَبْلَهَا كُنُسَا
يَا لِلْمَسَاجِدِ عَادَتْ لِلعِدَا بِيَعًا ... ولِلنِّدَاء غَدَا أَثْنَاءَهَا جَرَسَا [٢٤٢]

وله أبيات رقيقة قالها في حديقة ياسمين:

حَدِيقَةُ ياسَمِينٍ لا ... تَهِيمُ بِغَيْرِها الْحَدَقُ
إِذَا جَفْنُ الغَمَامِ بَكَى ... تَبَسَّمَ ثَغْرُهَا الْيَقَق
كَأطْرافِ الأَهِلَّةِ سَا ... لَ فِي أَثْنَائِهَا الشَّفَقُ [٢٤٣]

ومن بديع شعره الأبيات التالية في «الساقية»:

للهِ دُولابٌ تُرَقَّى نَهْرُهُ ... فَلَكًا ولكِنْ مَا ارْتَقَاهُ كَوْكَبُ
نَصَبَتْهُ فَوقَ النَّهْرِ أَيْدٍ قَدَّرت ... تَروِيحَهُ الأَرْوَاح سَاعَةَ يُنْصَبُ
فَكَأَنَّهُ وَهُوَ الطَّلِيقُ مُقَيَّدٌ ... وكأنّه وهوَ الحَبِيسُ مُسَيَّبُ
هَامَتْ بِهِ الأَحْدَاقُ لَمَّا نَادَمَتْ ... مِنهُ الحَدَائِقُ سَاقِيًا لا يشرَبُ
لِلماءِ فِيهِ تَصَعُّدٌ وتَحَدُّرٌ ... كالمُزنِ يَستَسقِي البحارَ ويسكُبُ [٢٤٤]

ولأبي الحسن علي بن سعد الخير أبيات في هذا المعنى[٢٤٥].

ف٤٤-على بن سعيد المغربي[٢٤٦]

وآخر من ظهر من أعلام الشعر خلال هذا العصر هو علي بن سعيد المغربي (٦١٠/١٢١٣-٦٧٣/١٢٧٤) الذي سنتحدث عنه كمؤرخ فيما بعد، ونتناول الآن جانبه كعَلَم من كبار مصنفي مجموعات النظم والنثر، وبين أيدينا الآن كتابه الشَّيِّق «رايات المبرزين وغايات المميزين» (نشره إميليو غرسية غومس مع ترجمة إسبانية في مدريد عام ١٩٤٢) وهو مجموع من مختار الشعر انتقاه من كتابه «المغرب» وأهداه إلى أبي الفتح جمال الدين موسى بن يُغمور (٥٩٩/١٢٠٣-٦٦٣/١٢٦٥) من كبار رجال الدولة المصرية على عهود الملك الصالح وتوران شاه وبيبرس.

والكتاب ينقسم قسمين: واحد عن شعراء الأندلس، والثاني عن شعراء إفريقية. والقسم الأول يتناول الكلام عن شعراء وسط الأندلس وغربه وشرقه ثم يلم بأخبار شعراء جزيرة يابسة، وإنما اقتصر على هذه الجزيرة دون بقية الجزائر الشرقية (البليار)؛ لأنه لم يجد شعراء ذوي قدر إلا بها. والقسم الثاني مرتَّب كذلك على أقسام أربعة: مراكش والمغرب الأوسط وتونس وصقلية.

والكتاب يتناول الكلام عن مائة وأربعين شاعرًا أورد المؤلف لهم أربع عشرة وثلاثمائة مقطوعة من الشعر، والشعراء مرتبون بحسب المدن (إشبيلية، قرطبة، غرناطة، طليطلة، دانية، طرطوشة، تُطيلة، إلخ)، وشعراء كل بلد مقسَّمون طبقات بحسب مراتبهم (الملوك، والوزراء، والسادة، والفقهاء، والشعراء، إلخ) ومرتبون ترتيبًا زمنيًّا بحسب القرون التي ظهروا فيها، ويتناول الكلام الفترة الواقعة بين زوال خلافة قرطبة والقرن الثالث عشر الميلادي.

وقد أورد ابن سعيد في هذا المجموع نحو ثلاثين نموذجًا من شعره، وهو يحدثنا عن ولعه بالتفنن في وصف الريح والغصن كقوله:

الـــريح أقـــود مـــا تكـــون فإنهـــا ... تـبدي خفايـا الـرّدف والأعكـان
وتمـــيل الأغصـــان بعـــد إبائهـــا ... حـتى تقـبل أوجـه الغـدران
ولذلـــك العشـــاق يـــتخذونها ... رسـلاً إلى الأحـباب والإخـوان[٢٤٧]

ويقول متحدثًا عن نفسه: ومما لم يُسبق الملوك إليه قوله:

وانظـر إلى سـفح الخلـيج كطائـر ... لقـي الصـبا مـن موجـه بجـناح

وقوله:

والشـمس مـن ألم الفـراق مريضـة ... مـدت لـتوديع الـبحيرة راحـا[٢٤٨]

وقد طار اسم ابن سعيد في القرن الماضي (في إسبانيا) بأبيات ترجمها له خوان فاليرا في شعر إسباني جميل يتحدث فيها عن وطنه وحبه له يقول فيها:

هــذه مصــر، فــأين المغــرب؟ ... مـذ نـأى عـني دموعـي تسـكب
فارقــته الــنفس جهــلا إنمــا ... يعـرف الشـيء إذا مـا يذهـب
أيــن حمْــصُ؟ أيــن أيــامي بهــا؟ ... بعدهــا لم الــقَ شــيئًا يعجــب
كــم تقضّــى لــي بهــا مــن لــذة ... حيــث للــنهر خريــر مطــرب
وحمــامُ الأيــك تشــدو حولــنا ... والمــثاني في ذراهــا تصــخب
أي عــيش قــد قطعــناه بهــا ... ذكـره مـن كـل نعمـى أطيـب
ولَكَــمْ بالمــرج لــي مــن لــذة ... بعدهـا مـا العـيش عـندي يعـذُب
والــنواعير الــتي تذكارهــا ... بالـنوى عـن مهجـتي لا يُسْـلَب
ولَكَــم في شــنتبوس مــن مــنى ... قـد قضـيناها ولا مـن يعتـب
وغــناء كــل ذي فقــر لــه ... سـامع غصـبا ولا مـن يغصـب
بلــدة طابــت ورب غافــر ... ليـتني مـا زلـت فـيها أذنـب
أيـن حسـنُ النـيل مـن نهـر بهـا ... كـل نغمـات لديـه تطـرب
كـم بـه مـن زورق قـد حلّـه ... قمـرٌ سـاقٍ وعـود يُضـرَب!

....

وإلى مالقــة يهفــو هــوى ... قلـب صَـبٍّ بالـنوى لا يُقلّـب

أيـــن أبـــراج بهـــا قـــد طالمـــا ... حـث كاسـي في ذراهـا كوكـب
جـــاءت الـــريح بهـــا ثـــم انثنـــت ... أتـــراها حـــذرت مـــن ترقـــب

....

هـــذه حـــال وأمـــا حـــالتي ... في ذرا مصـــر ففكـــر متعـــب
لأسمعـــت أذنـــي محـــالا ليـــتها ... لم تصـــدّق ويحهـــا مـــن يكـــذبنا
لوكـــذا الشـــيء إذا غـــاب انـــتهوا ... فـــيه وصـــفًا كـــي يمـــيل الغُيّـــبا
هـــا أنـــا فـــيها فـــريد مهمَـــل ... وكلامـــي ولســـاني مُغْـــرب
وأرى الألحـــاظ تنـــبو عـــندما ... أكتـب الطـرس، أفـيه عقـرب؟[249]

obeikandl.com

٦- مملكة غرناطة

ابن الخطيب-ابن زَمْرَك

ف٤٥-ابن الخطيب (كشاعر)

كان الشعر الأندلسي خلال العصر الغرناطي (٦٦٥/١٢٦٦-٨٩٨/١٤٩٢) يلفظ آخر أنفاسه، مثله في ذلك مثل غيره من فروع الثقافة الإسلامية في الأندلس: كانت كلها تعيش على أصداء الماضي.

ولقد قسم غرسية غومس -في بحثه عن ابن زمرك - العصر الغرناطي من الناحية الثقافية إلى ثلاث فترات: فترة غلب فيها التأثير النصراني، وكان ذلك على أول أيام دولة بني نصر، إذ كان أولئك الأخيرون أفصالاً (أتباعًا) صرحاء للملوك قشتالة: والفترة الثانية - خلال القرن الرابع عشر الميلادي - فترة بينَ بينَ، اختلطت فيها المؤثرات المسيحية بالمؤثرات الشرقية الإفريقية. أما الفترة الثالثة -خلال القرن الخامس عشر - فقد غلب فيها الطابع الإفريقي المشرقي على مملكة غرناطة وثقافتها بصورة واضحة جدًا. وذكر غومس كذلك أنه خلال الفترة الثانية، كانت عناصر الحضارتين: المسيحية الغربية والمشرقية الإفريقية، تتفاعل هذا التفاعل الذي سيتولد عنه فيما بعد كيان سياسي ثقافي خاص[٢٥٠].

ولقد عبَّر ابن خلدون عن ذلك بأجلى بيان في مقدمته؛ وذلك حيث قال: «وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب، لكن على نسبته ومقدار عمرانه، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض، فبادر بالإجابة، والله وارث الأرض ومن عليها. وإذا تبدلت الأحوال جملة، فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث»[٢٥١].

وتتبدى لنا في عالم الشعر خلال هذا العصر شخصيتان تكادان تكونان

فريدتين في بابهما: الأولى شخصية ابن الخطيب (٧١٣/١٣١٣-٧٧٦/١٣٧٤) أكبر مؤرخي ذلك العصر وأعظم شعرائه.

ونذكر من شعره قصيدته العصماء التي وجه بها إلى أبي عنان سلطان بني مرين - وكان قصده موفدًا من قبل سلطانه محمد الغني بالله لاستنصاره على مغالبة النصارى - ومطلعها:

خَلِيفَةَ اللهِ سَاعَدَ القَدَرُ ... عُلاكَ مَا لاحَ فِي الدُّجَى قَمَرُ
وَدَافَعَتْ عَنْكَ كَفُّ قُدْرَتِهِ ... مَا لَيْسَ يَسْتَطِيعُ دَفْعَهُ البَشَرُ
وَجْهُكَ فِي النَّائِبَاتِ بَدْرُ دُجَى ... لَنَا وَفِي المَحْلِ كَفُّكَ المَطَرُ
وَالنَّاسُ طُرًّا بِأَرْضِ أَندَلُسٍ ... لَوْلاكَ مَا أَوطَنُوا وَلا عَمَرُوا(٢٥٢)

وله قصيدة أخرى نحا فيها نحو القدماء وجه بها إلى السلطان أبي سالم سلطان مراكش، يسأله فيها أن يجير محمد بن يوسف بن إسماعيل بن نصر المخلوع عن عرش غرناطة مطلعها:

سَلا هَلْ لَدَيْهَا مِنْ مُخَبِّرَةٍ ذِكْرُ ... وَهَلْ أَعْشَبَ الوَادِي وَنَمَّ بِهِ الزَّهْرُ
وَهَلْ بَاكَرَ الوَسْمِيُّ دَارًا عَلَى اللِّوَى ... عَفَتْ آيُهَا إِلا التَّوَهُّمُ وَالذِّكْرُ
بِلادِي الَّتِي عَاطَيْتُ مَشْمُولَةَ الهَوَى ... بِأَكْنَافِهَا وَالعَيْشُ فَيْنَانُ مُخْضَرُّ
وَجَوِّي الَّذِي رَبَّى جَنَاحِيَ وَكْرُهُ ... فَهَا أَنَا ذَا مَا لِي جَنَاحٌ وَلا وَكْرُ

ويقول فيها:

أقول لأظعاني وقد غالها السُّرى ... وآنسها الحادي وأوحشها الزجر
رويدك، بعد العسر يسر فأبشري ... بإنجاز وعد الله، قد ذهب العسر

ويقول فيها:

قصدناك يا خير الملوك على النوى ... لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
كففنا بك الأيام عن غُلَوائها ... وقد رابنا منها التعسف والكبر(٢٥٣)

obeikandl.com

وله أبيات جيدة أوحاها إليه وقوفه بقبر المعتمد بن عبادة قال فيها:

قَدْ زُرْتُ قَبْرَكَ عَنْ طَوْعٍ بأغماتِ ... رأيتُ ذلكَ مِنْ أَوْلَى المُهِمّاتِ
لِمْ لا أَزُورُكَ يا أَنْدَى المُلوكِ يَداً ... ويا سِراجَ اللّيالي المُدْلَهِمّاتِ
وأنتَ مَنْ لَوْ تَخَطّى الدَّهْرُ مَصْرَعَهُ ... الى حَياتي أجادَتْ فيهِ أبْياتي
أنافَ قَبْرُكَ في هَضْبٍ يَميزُهُ ... فتنتميهِ حَفِيّاتُ التَّحِيّاتِ
كَرُمْتَ حَيّاً ومَيْتاً واشْتَهرْتَ عُلاً ... فأنتَ سُلْطانُ أحياءٍ وأمْواتِ
ما رُئِيَ مِثْلُكَ في ماضٍ، ومُعْتَقَدي ... أنْ لا يُرى الدَّهْرُ في حالٍ وفي آتِي[٢٥٤]

ونختم حديثنا عن ابن الخطيب الشاعر بهذه الأبيات الفيَّاضة بصدق العاطفة وجلال الإيمان، التي قالها في محبسه «يتوقع مصيبة الموت فتجيش هواتفه بالشعر يبكي نفسه»:

بَعُدْنا وإنْ جاوَرَتْنا البُيوتْ ... وجِئْنا بوَعْظٍ ونَحْنُ صُموتْ
وأنْفاسُنا سَكَنَتْ دَفْعَةً ... كَجَهْرِ الصّلاةِ تَلاهُ القُنوتْ
وكُنّا عِظاماً فصِرْنا عِظاماً ... وكُنّا نَقوتُ فَها نَحْنُ قوتْ
وكنا شموس سماء العلي ... غربن فناحت عليها البيوت
فقُلْ للعِدا ذَهَبَ ابْنُ الخَطيبِ ... وفاتَ ومَنْ ذا الذي لا يَفوتْ؟
فَمَنْ كانَ يَفْرَحُ مِنْكُمْ لَهُ ... فقُلْ: يَفْرَحُ اليومَ مَنْ لا يَموتْ[٢٥٥]

ف٤٦-ابن زمرك

أما الشخصية الثانية، وآخر علم من أعلام الشعر الأندلسي فأبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الشُّرَيحى المعروف بابن زَمْرَك أو ابن زُمْرُك (٧٣٤/١٣٣٣-٧٩٦/١٣٩٣) تلميذ ابن الخطيب وخلفه في الوزارة، الذي لم يتردد في تتبعه بالأذى، ولم يحجم عن الإفادة من موته المحزن.

ولدينا الآن معلومات وافية عن أشعاره: قصائده، ووصفياته، ومرتجلاته،

وموشحاته، بفضل البحث الذي كتبه عن غرسية غومس، وقد أشرنا إليه. ولدينا كذلك فكرة دقيقة عن علمه باللغة وتملكه زمامها. ويتردد في بعض شعره صدى للحب العذري. وأكثر شعره دلالة على شخصه وفنه تلك الأبيات التي قالها في قنديل مضاء

لقد زادني وجداً وأغرى بيَ الجوى ... ذُبالٌ بأذيال الظلام قد التفّا
يلوح سنانًا حين لا تنفح الصّبا ... ويبدي سوارًا حين تَثْني له العطفا
قطعت به ليلاً يطارحني الجوى ... فآونةً يبدو وآونةً يخفى
إذا قلتُ لا يبدو أشالَ لسانه ... وإن قلّتُ لا يخفى الضياءُ به كَفّا
إلى أن أفاقَ الصبحُ من غمرة الدُّجى ... وأهدى نسيمُ الرّوض من طيبه عَرْفًا
لك الله يا مصباحُ أشْبَهْتَ مهجتي ... وقد شَفّها من لوعةِ الحَبِّ ما شفّا[٢٥٦]

وكان ابن زمرك معنيًّا - إلى جانب المدائح التي كان يقولها في السلاطين - بقرض المقطعات الوصفية، وخاصة في صفة «الحمراء» وقصورها وبساتينها، والحفلات التي كانت تقام في قصورها، وقد جدد بذلك ذكرى أيام ابن خفاجة ودل على أنه تلميذه غير المباشر. وإليك مثالاً من ذلك ما قاله في صفة حدائق «قصر شنّيل» وقد خرج الأمير محمد الخامس (الغني بالله) للنزهة فيها:

يا قصر شنّيل وربعك آهلٌ ... والروض منك على الجمال قد
لله بحرك والصّبا قد سرّدت ... منه دروعًا تحت أعلام الشجرْ
والآس حفَّ عذاره من حوله ... عن كلِّ من يهوى العذارَ قد اعتذرْ
قَبِّلْ بثغر الزهر كفَّ خليفة ... يُغنيك صوبُ الجود منه عن المطرْ
وافرشْ خدود الورد تحت نعاله ... واجعل بها لون المضاعَف عن خفر
وانظمْ غناء الطير فيه مدائحًا ... وانثر من الزهر الدراهم والدرر[٢٥٧]

ولابن زمرك قصائد أخرى يصف فيها «قصور الحمراء» في مجموعها. وشعره فيها يبدو وكأنه «أنغام راقصة متدفقة، ترقص على وقعها الزهور والنجوم، وتفيض بالأخيلة والتشبيهات المتشابكة. وإن من يعرف هذه القصور؛ ليجد في ذلك

الشعر تصويرًا بديعًا رائعًا لها»[٢٥٨].

ويقول غومس في موضع آخر: «وقد نُقشت بعض أبيات ابن زمرك على جُدُر الحمراء، وهي تكوّن جزءًا لا ينفصل من زخارف قصور بنى نصر». وإليك نموذجًا منها أبياتًا كان بعضها منقوشًا على جُدُر «بهو الأختين» في الحمراء، وهي من قصيدته المعروفة التي قالها في وصف دار الملك التي ابتناها السلطان محمد الغني بالله و مطلعها:

سل الأفق بالزهر الكواكب حاليًا ... فإنيَ قد أودعتهُ شرحَ حاليا
وحمّلتُ معتل النسيم أمانة ... قطعتُ بها عمر الزمان أمانيا

ويقول فيها:

ولله مبناك الجميل فإنه ... يفوق على حكم السعود المبانيا
فكم فيه للأبصار من مُتنزه ... تُجِدُّ به نفسُ الحليم الأمانيا
وتهوى النجومُ الزهر لو ثُبِتت به ... ولم تك في أفق السماء جواريا
ولو مَثَلَتْ في سابقيه لسابقت ... إلى خدمة ترضيك منها الجواريا
به البهو قد حاز البهاء وقد غدا ... به القصر آفاق السماء مباهيا
وكم حلة جلّلته بحُلِيّها ... من الوشي تُنسى السابريَّ اليمانيا
وكم من قِسيٍّ في ذراه ترفعت ... على عمد بالنور باتت حواليا
فتحسبها الأفلاك دارت قِسيُّها ... كظل عمود الصبح إذ بات باديا
سواري قد جاءت بكل غريبة ... فطارت بها الأمثال تجرى سواريا
به المرمر المجلو قد شف نوره ... فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
إذا ما أضاءت بالشعاع تخالها ... على عظم الأجرام منها لآليا
به البحر دفاع العباب تخاله ... إذا ما انبرى وقد النسيم مباريا[٢٥٩]

... ... إلخ

وعاش في ذلك العصر ابن الحجاج النميري، وقد سبق ابن الخطيب بجيل إذ

توفي سنة ١٣٦٢/٧٦٤. وقد ولد في وادي آش وسكن في غرناطة وفيها عاش، وكان كاتبًا ذا أسلوب فَكِه. ومما يقال في شأنه أنه: كان عذب الحديث وطبقة عالية في الشعر.

obeikandl.com

(ب) الاتجاه الشعبي الدارج

نظرية ريبيرا الجديدة - الزجل والموشحة - مبتكرها مقدم ابن معافى القبري - تطور هذين الفنين ونضوج صناعتهما - أوائل الزجالين - ابن قزمان وديوانه - مدرسة ابن قزمان.

ف٤٧-نظرية ريبيرا الجديدة

أصبح من الواضح - نتيجة للأبحاث التي قام بها الأستاذ خُليان ريبيرا - أن أهل الأندلس الإسلامي كانوا يستعملون العربية الفصيحة كلغة رسمية يتعلمها الناس في المدارس ويكتبون بها الوثائق وما إليها؛ أما في شئونهم اليومية وأحاديثهم فيما بين بعضهم وبعض فكانوا يستعلمون لهجة من اللاتينية الدارجة أو العجمية el romance[٢٦٠].

وليس ذلك بغريب؛ لأننا إذا ذكرنا أن عدد العرب الخُلّص الذين دخلوا الجزيرة كان قليلاً جدًّا، تبيَّنَّا أننا لا نستطيع اعتبار الأندلسيين المسلمين ساميين أو مشارقة، ابتداء من جيلهم الثالث أو الرابع من بعد الفتح؛ ولنضف إلى ذلك أن شعوب أوروبا كانت تستعمل في ذلك الحين اللاتينية كلغة، وأن ناسها كانوا يتحدثون إلى جانبها لهجات أعجمية romance مختلفة مشتقة من اللاتينية.

وكان هذا الازدواج في اللغة هو الأصل في نشوء طراز شعري مختلط، تمتزج فيه مؤثرات غربية وشرقية. وقد ازدرى أهل الأدب الفصيح والمعنيُّون بأمره هذا الطراز الجديد، بينما مضى الناس جميعًا يتناقلون مقطعاته سرًّا فيما بينهم، وذاع أمره داخل البيوت وفي أوساط العوام، وما زال أمره يعظم والإقبال عليه يشتد؛ حتى أصبح في يوم من الأيام لونًا من الأدب. وقد أخذ هذا الطراز الجديد من الأدب الشعبي صورتين: **إحداهما** «الزجل»، **والثانية** «الموشحة».

أما الزجل فشعر يصاغ في فقرات تسمى أبياتًا. وتبدأ مقطوعته ببيت يعرف «بالمركز» أو «السمط» تليه أغصان ذات قافية واحدة ووزن واحد، يتكون الغصن منها من ثلاثة مصاريع أو أكثر، ثم يعقبها بيت في نفس وزن المركز وقافيته، وهكذا.

وأما الموشحة فنَظْمٌ تكون فيه القوافي اثنتين اثنتين كما هو الحال في الوشاح، وهو العقد يكون من سلكين من اللآلئ لكل منهما لون. فالتسمية هنا تشير إلى طريقة تأليف القوافي، وهي تشبه الزجل فيما عدا ذلك. أي أن الموشحة تتألف من فقرات تسمى الأبيات، كل فقرة منها تتكون من عدد معين من أشطار البيوت في قافية واحدة، وتعقب كل فقرة خرجة في بحر أشطار الغصن ولكن في قافية أخرى؛ ويستلزم الوشاح قافية هذه الخرجة في كل خرجات موشحته، أما الأغصان فقد يكون كل منها على قافية، ولكن من بحر واحد.

والزجل والموشحة في واقع الأمر فن شعري واحد، ولكن الزجل يطلق على السوقي الدارج منهما؛ إذا لا بد أن يكون في اللغة الدارجة، فقد كان يُتغنى به في الطرقات. أما الموشحة فلا تكون إلا في العربي الفصيح، واسمها كذلك عربي كما هو واضح؛ وربما استطعنا أن نقول: إن لفظ الموشحة يطلق على المهذب من الزجل الذي تستعمل فيه الفصحى أو ينظم في أسلوب أرفع من أسلوب الأزجال[٣٦١].

وإليك نموذجًا من أزجال ابن قزمان [٢٦٢][*]:

يـــا ملـــيح الدنـــيا قـــول   عـــلى إش أنـــت يـــا أبـــن مكُـــول[*]

أي أنـــا عـــندك وجـــيه يـــتمجج   مـــن وفـــيه ثـــم فـــاحلي مـــا تتـــيه

ترجع إنْسانك وصول[*]

(*) زجل رقم ٩٩ طبعة جونزبرج. وقد اكتفى المؤلف بالبيتين الأولين، ولكني رأيت أن أورد النص الكامل له لكي أعطي القارئ فكرة عن زجل كامل من أزجال ابن قزمان. وسأورد الشروح هنا في الهامش؛ وقد استعنت في ذلك بصديقي الدكتور عبد العزيز الإهواني.

وقد أوردت الفقرة الأولى على الهيئة التي وردت بها في الديوان؛ حتى يأخذ القارئ فكرة عن طريقة كتابة الأزجال، وأوردت الباقي كل شطر في سطر للإيضاح.

(*) الزجل من بحر مجزوء الرمل: فاعلات فاعل، ورسمه:

ـــــ ب ب ـــــ ب ـــــ ب ب ـــــ ب

والفقرة الثانية من «المركز» تقرأ هكذا: عَلاَ شَنْتَ يا بْنِ ملول.

(*) على إش: علامَ، لماذا؟. ملول: ضيق الصدر. أي أنا: إنني . وجيه: ذو مقام. يتمجج: ينفر. منْ :الأغلب أن صحتها: منه. وإذا كانت صحتها منْ وفيه: يكون المعنى ينفر منه وفيه (؟). ثم فاحلي: اصطلاح يستعمله ابن قزمان كثيرًا ومعناه وفي أشد حالات تيهك. إنسانك: رجلك، صديقك.

معنى البيت:

يا مليح الدنيا، قُل

لماذا أنت متغير لا تثبت على حال

إنني عندك ذو مكانة طيبة

كيف ينفر (الإنسان) من وَفيِّه؟

(ته ماشئت) فعندما يصل تيهك أقصاه .. سترجع وَصولا لحبيبك.

و «إنسانك» في الأصل «انسك»، ولكن الوزن ينكسر هكذا، ثم إن المعنى لا يفهم؛ وقد اقترح الدكتور الإهواني إضافة هذه النون.

obeikandi.com

مُـــــر بَعَـــد جـــيدهُ سَــــرَفْ

لم يُـــــرَ مِـــــثْلُ نُصَـــــفْ

ولـــــــس أتْ إلاّ طَـــــــرَفْ

وَالّذِي قلنا فضول(*)

إش لــــو أنْ يَـــــذّا نـــــراكْ

إذ نْجِـــــى وَقْـــــتَ جَفَـــــاكْ

كـــــان تخلّـــــين كـــــذاكْ

هاذهُ شيئًا قتول(*)

الوفـــــا لَـــــسْ لِحَـــــدْ

غـــــير أمـــــين عـــــبد الصـــــمدْ

لــــلمديح ندخـــــل بَعَـــــدْ

(*) مر بعد: اصطلاح أندلسي يستعمله ابن قزمان كثيرًا، ومعناه حسنًا .. أو بالعامية: خلاص .. أو: طيب يا سيدي. والهاء المفردة المضمومة معناها «هو». وأت: أنت.

حسنًا .. إن إسرافه (في الدلال) جيد

(إذ) لم يعرف الناس مثله منصفًا

(وعلى اي حال) فلست أنت إلا طرفًا (في ذلك الحب)، وكل ما قلنا فضول ولغو.

(*) إش لو أن: وما عليك لو .. وبالعامية: فيها إيه يعني لو .. يذا: أيضًا كان تخلين: لأنك إذ تدعني ..

معنى البيت:

وماذا عليك لو أنك سمحت لي برؤياك

فاجيء إليك وقت جفاك

لأن تركك إياي هكذا

هذا شيء قاتل

تُرَى ما أُملح ذا الدُّخول(*)

هـــاذهُ يـــا ابـــنِ طُـــرَفْ

فالمقـــام ضَـــرّبْ وكَـــفْ

أهـــنا جـــا: قـــف! ووقَـــفْ

والكلام في يَطول(*)

فكـــذاك طـــالْ يَـــدْ فـــيه

(*) لَسُّ، تُنطق بمد الواو: لَسُّو، ليس. لحد: لأحد. امين عبد الصمد: لا يفهم إذا كان المراد هنا اسم الممدوح كاملاً، أو رجلاً يريد أن يصفه بانه أمين قومه آل عبد الصمد.

معنى البيت:

الوفاء لا يوصف به أحد

غير أمين عبد الصمد

وندخل بعد ذلك للمديح

وما أحسن هذا الدخول

(*) في مستهل القسم الثاني من الزجل، وهو قسم المديح، يقف، ابن قزمان لحظة ليمدح نفسه، وما أكثر ما يمدح نفسه في أزجاله.

هاذهُ: هذا هو، والمراد هنا: هذه يا بني طرف. فالمقام: في الحال، دون صعوبة، دون تفكير طويل. ضرب وكف: يميل الدكتور الإهواني إلى اعتبار هذه العبارة من اصطلاحات النساجين في الأندلس، ومعناها: أتم العمل، فرغ من الشيء، أهنا جا: هنا يجيء القول، هنا يصدق قولنا. قف ووقف: قف لتسمع بديع القول، ووقف بالفعل ليسمع.

معنى البيت:

تلك يا بني طرف (من الشعر)

في الحال أصوغ ما أريد من القول

فإذا قلت زجلاً قيل: قف لنسمع .. ويقف الإنسان

والكلام في يطول.

إنْ عـــــالم وفقـــــيه

وإذا قلـــــت نبـــــيه

فيَجبْ لك أن تقولْ(*)

والــــذي مــــاغُ أقَــــلّ

شــــرف أجــــدادْ ونَسَــــلْ

والأصَــــلْ قــــطّ الأصَــــلْ

لا فروع دون الأصول(*)

يـــا لُـــبّابْ كـــلّ لـــبابْ

الـــقَ رِجلـــك في الـــرُّكابْ

فانـــت فاصـــحابك شـــباب

(*) طال: طال القول، يطول القول. يذْ: أيضًا. فيه: في الممدوح. إنُّ: إنه.

المعنى:

وكذلك يطول المديح فيه أيضًا

إنه عالم وفقيه

وإذا قلت إنه نبيه

فعليك أن تردد هذا القول أنت أيضًا.

(*) ماغُ: معه، عنده، ما يعمله. نسل: نسَل، والمراد به هنا: حسَب. قط: فحسب.

المعنى:

والذي أعلمه من فضائله أقل ما عنده

شرف أجداد ومحتد

ويكفيه أصله الكريم، وما أدراك ما الأصل

إذ لا فروع دون أصول.

obeikandi.com

فانتَ هُ فالدُّوَلْ هَيُولْ(*)

ثــــم هــــم بيـــتٌ خُطَـــطْ

القضـــــا في والإثـــــمْ قَــــط

والثـــــنا فـــــيهم أشَـــطْ

إنما اخترت الفصولْ(*)

قاســـــيَ القلـــــب رحـــــيمْ

فـــــالقى غـــــيظ الحلـــــيمْ

وإذا أُمِّـــــلْ كـــــريمْ

(*) الق رجلك في الركاب: تقدم، ادخل الميدان. فانت: إذ إنك. فاصحابك: في أصحابك، من بين أقرانك. الدُّوَل: الدولة. هيول: هائل، عظيم.

المعنى:

يا لباب كل لباب

تقدم وادخل في الميدان

إذ إنك من بين أصحابك شاب قوى

وأنت في الدولة ذو محل عظيم

(*) بيته: بيت. خُطَطْ: خطط، جمع خطة، وهي المنصب الكبير. القضافي: خطة القضاء متداولة بين أفراد هذا البيت. والإثم قط: لا يوجد فيه إثم ألبته، ويرى الدكتور الإهواني أن إثم هنا تحريف للاسم، والمعنى على هذا الاعتبار: إن خطة القضاء والاسم – أي الشهرة – في هذا البيت وحده. أشط: أطول. الفصول: بعض الأشياء.

المعنى:

ثم إنهم بيت تولى أفراده الخطط والولايات الكبيرة

ففيهم خطة القضاء، ولهم وحدهم الشهرة

والثناء عليهم يطول

ولكني اكتفيت منه ببعضه

وإذا كلّفْ حمولْ(*)

والى هـــــذا الجـــــلالْ
مـــــنظرُ لَــــسْ لُ مِـــثالْ
أُجْ بحالـــــة دارة هـــــلالْ
او بحالْ وُجْ دَشُولْ(*)

لا نمـــوت حـــتى نـــراكْ
فَالـــبلدْ قاضـــي كـــذاكْ
وتـــرى غايـــة مُـــناكْ
ولا يلحقك خمولْ(*)

لـــولا هَمَّـــا فالطَّـــريقْ
كَـــنْ يجـــي أكـــثر رقـــيقْ
إنمـــا هـــذا الدقـــيقْ

(*) معنى هذا البيت واضح.

(*) والى هذا: وبالإضافة إلى هذا. لس: ليس. أج، وج: وجه. دشول: عبارى إسبانية de sol أي: شمس.

المعنى:

وبالإضافة إلى هذا الجلال
منظره ليس له مثال
له وجه كأنه دائرة الهلال
أو كأنه وجه الشمس.

(*) معنى هذا البيت واضح.

وقمت فيه المقول (*)

كَـــفْ نـــرى خُـــبْزَ بَنـــيخْ

اســـودَ اســـودْ مـــثلَ بـــجْ

يـِ إديـــــنْ تَقَطـــــــيخْ

ودقيق حُمُصْ وفول (*)

وسمـــا مـــثل الـــنحاسْ

ونفـــاق يـِ كـــل راسْ

لـــي يَجـــى مـــاعُ نُعـــاسْ

(*) فالطريق: في الطريق، في طريقي، في حياتي. كن: كان، أي كان هذا الشعر. أكثر رفيق: أكثر رقة. الدقيق: المراد به دقيق القمح. وقمت: تاهت.

المعنى:

ولولا أن الهموم في طريقي ومن حولي

لجاء زجلي هذا أكثر رقة

ولكن حاجتي إلى الدقيق

شغلت عقلي وحالت بينه وبين الإجادة.

(*) كف: كيف. خُبْزَ: خُبْزَة: رغيف. بنيخ: paniza رغيف صغير من الخبز. بج: pex: نار. إدين: أيد. تقطيخ أو نفطيخ: لم أستطع معرفة معنى هذا اللفظ.

المعنى:

كيف يتاح لي أن أحصل على رغيف صغير من الخَبز

ولو كان أسود مثل القار

في أيدي تقطيخ

ودقيق حمص وفول؟

obeikandi.com

وبلا عرض وطول(*)

وتـــــرى عـــــادْ ذا العمـــــلْ

وقـــــيامْ صَـــــحْبْ الجَـــــبَلْ

كـــل شـــيء كـــان يُحْـــتَمَلْ

لو سلم هذا السُّبُول(*)

وصَـــــحُو، واللـــــيل نهـــــارْ

وشِـــــتا ضُـــــعيفُ صـــــارْ

وحَـــــقٌ في مَرْسَـــــى غُـــــبَارْ

(*) يريد ابن قزمان هنا أن يصف الجفاف وقلة المطر وسوء الأحوال، وكان الأندلسيون يشبهون السماء الصافية التي لا سحاب فيها بالنحاس.

المعنى:

والسماء الصافية كأنها قبة من نحاس

وقد فاضت الرءوس والقلوب بالنفاق والخلاف

وفي مثل هذه الأحوال يستعصي النعاس

وهذا الشرك كله لا نهاية له.

(*) عاد: أيضًا. صحب الجبل، صاحب الجبل. لا بد أن ابن قزمان يشير هنا إلى عدو كان يحاصر قرطبة ويقطع السبل إليها، ولسنا نعرف إلى من يشير بالضبط. وقد يكون المراد بصحب الجبل: أهل الجبل، أي قطاع الطرق. السبول: السبل، أو الطرق.

المعنى:

ثم إنك ترى أيضًا هذا العمل

بالإضافة إلى قيام صاحب الجبل

وكان كل شيء يحتمل

إلا انقطاع هذه الطرق

obeikandl.com

إنما فيها السيول(*)

ندعـــــو اللـــــه المجيـــــبْ

الفــــرجْ مـــــنْ قريــــبْ

والهـــــــوى ذابْ يطيـــــب

والشتا على النزول(*)

أرّ مــــا شـــيتْ لـــنْ تـــرُدْ

حُـــطْ قَــطْ إشْـــمَا تُجِـــدْ

اللـــه اللـــه كُـــدْ كُـــدْ

لس نريدْ منْهُ مُطُولْ(*)

(*) شتا: مطر. حق: حقًا. مرسى غبار: يغلب على الظن أن هذا اسم موضع قد يكون هو مُقام الممدوح.

المعنى:

والجو صحو لا مطر فيه، والليل كأنه نهار

والمطر قد أصبح ضعيفًا

حقًا إنه في مرسى غبار

فهناك تجد السيول.

(*) مَنْ: منه. الهوى: الهواء. ذاب: الآن. على النزول: على وشك الهطول.

المعنى:

إننا ندعو الله المجيب

والفرج منه قريب

أن يطيب الهواء الآن

ويأخذ المطر في الهطول.

(*) أر: هات. إشما: أي شئ، ما. كد: في سرعة. ومطول: مطل.

=

obeikandl.com

ويمكننا أن نقارن هذا الزجل بزجل إسباني صرف من نفس الوزن والنوع للشاعر الإسباني ألفاريز د فيليا ساندينو Alavarez de Villasandino:

AA, ddda	Vivo ledo con razón amigos; toda sazón.	مركز أو سمط
e	Vico ledo e sin pesar,	
d	pues amor me fizo amar	أغصان
d	a la que podré llamar	
a	mas bella de cuantas son.	خرجة
e	Vivo ledo e vivré	
e	pues que que dė amor alcancé	أغصان
e	que serviré la que sé	
a	que me dara galardón.	خرجة

وترجمته:

إنني يا رفاقي أحيا حياة مرحة
كلَّ أيام حياتي، وأنا محق في ذلك
إنني أعيش مرحًا دون هموم
لأن الحب أتاح لي أن أعشق
تلك التي يمكننا أن نقول إنها

=

المعنى:

هات ما شئت فلست أرفض شيئًا
ضع فقط أي شيء تجده
الله الله .. أسرع .. أسرع! فلست أريد مطلا.

أجمل النساء جميعًا.
إنني أعيش مرِحًا وسأعيش [هكذا]
لأنني عن طريق الحب وصلت
إلى من أعرف أنها بخدمتي لها
ستجازيني خير الجزاء.

ووزن أبيات هذا الرجل إذا: ا ا، ب ب ب ا، (ا ا)، جـ جـ جـ ا، (ا ا) .. إلخ. ولكن هذا الوزن هو أبسط أوزان الأزجال، فمنها ما تكون الخرجة فيه مكونة من شطر بيت أقصر في الوزن من أشطار الغصن، وهذه الأشطار بدورها تكون على نفس وزن المركز القصير.

وهناك أزجال تكون الخرجة فيها مكونة من بيت ذي شطرين، وأزجال أخرى تكون الأغصان فيها على أوزان مُضَفّرة متبادلة، وثالثة تكون في الأغصان أربعة أربعة بدلاً من ثلاثة ثلاثة، ورابعة تكون الخرجة فيها ثلاثة أشطار، وخامسة وردت من غير مركز .. إلخ.

وهذه الصور كلها ذات أهمية خاصة عند مقارنة الأزجال بأوزان الشعر الأوروبي.

ف ٤٩ - مقدم بن معافى القبري، مبتكر الموحشة[٢٦٣]

كان أول من استعمل هذا الفن الشعري مقدم بن معافى القبري الضرير الذي عاش بين سنتي ٨٤٠/٢٢٥ و ٩١٢/٢٩٩، وفي ذلك يقول ابن بسام تحت عنوان: «فصل في ذكر الأديب أبي بكر عبادة بن ماء السماء وإتيان جملة من شعره مع ما يتعلق بذكره»، قال: «قال أبو الحسن: وكان أبو بكر في ذلك العصر [الدولة العامرية والحمودية] شيخ الصناعة وإمام الجماعة، سلك إلى الشعر مسلكًا سهلاً،

فقالت له غرائبه: مرحبًا وأهلاً ...

وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقتها، ووضعوا حقيقتها، غير مرقومة البرود، ولا منظومة العقود، فأقام عبادة هذا منارها ومرساها ومنادها، لوقوّم مليها وسنادها، فكأنما لم تُسمع بالأندلس إلا منه ولا أخذت إلا عنه، واشتهر بها اشتهارًا غلب على ذاته وذهب بكثير من حسناته. وهي أوزان كثيرة الاستعمال عند أهل الأندلس في الغزل والنسيب، تُشَق على سماعها مصونات الجيوب، بل القلوب ..

وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقنا واخترع طريقتنا - فيما بلغني - مقدم بن معافى القبري الضرير، وكان يصنعها على أشطار الأشعار، غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة، يأخذ اللفظ العامي أو العجمي فيسميه المركز، ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا أغصان.

وقيل إن ابن عبد ربه صاحب «كتاب العقد» كان أول من سبق إلى هذا النوع من الموشحات، ثم نشأ يوسف بن هارون الرمادي، فكان أول من أكثر فيها من التضمين في المراكز، يضمّن كل مركز يقف عليه في المراكز خاصة، فاستمر لعلى ذلك شعراء عصره كمكرم بن سعيد وابني أبي الحسن. ثم نشأ عبادة هذا فأحدث التضفير، وذلك أنه اعتمد مواضع الوقف في الأغصان فيضمنها، كما اعتمد الرمادي مواضع الوقف في المركز. وأوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض كتابنا هذا، إذ أكثرها على غير أعاريض أشعار العرب»[٣٦٤].

ويؤيد ابن خلدون كلام ابن بسام بقوله:

«وأما أهل الأندلس، فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه، وبلغ التنسيق في الغاية، استحدث المتأخرون منهم فنًّا منه سموه بالموشح، ينظمون أسماطًا

أسماطًا وأغصانًا أغصانًا، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة، ويسمون المتعدد منها بيتًا واحدًا، ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتاليًا فيما بعد إلى آخر القطعة، وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات، ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب، وينسبون فيها ويمدحون كما يُفعل في القصائد. وتجاروا في ذلك إلى الغاية، واستظرفه الناس جملةً: الخاصة والكافة؛ لسهولة تناوله وقرب طريقه. وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقام بن معافى القبري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني، وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد. ولم يظهر لها مع المتأخرين ذكر، وكسدت موشحاتهما، فكان أول من برع في هذا الشأن ابن عبادة القزّاز، شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية»[٣٦٥].

ولم يبق لنا من نظم مقدم القبري شيء، ولكن يغلب على الظن أن موشحاته وأزجاله كانت من أبسط طراز، أي على ذلك الغرار الذي سبق بيانه. ولم نوفق - إلى الآن - إلى تعرف المصدر الذي استوحاه مقدم عندما ابتكر فن التوشيح، فيذهب البعض إلى أن أصل الموشح أندلسي محلي ويذهب البعض الآخر إلى أنه جليقي، ويذهب نفر ثالث إلى أن أصله البعيد روماني romanica؛ بل قال بعضهم: إن الموشحات أتت الأندلس من بغداد، وأن أصلها يُلتمس في الرباعيات العربية الفارسية. وأخيرًا حاول ميلياس فيليكروسا Millas Villicrosa أن يجد علاقة ما بين الموشحة والزجل من ناحية والفن الشعري العبري المعروف باليزمون Pizmon والتسبيحات اللاتينية التي يرددها جمهور المصلين عقب كل فقرة من فقرات الترتيل الديني responsorio látino، وهي في الغالب آيات من الكتاب المقدس[٣٦٦].

وقد حلت الموشحات محل القصائد الفصيحة كثيرًا، وقد ذكرنا قول ابن خلدون أنهم كانوا: «ينسبون فيها ويمدحون كما يُفعل في القصائد»، وأنهم:

«تجاروا في ذلك إلى الغاية، واستظرفه الناس جملة: الخاصة والكافة؛ لسهولة تناوله وقرب طريقه».

وقد أشار منندذ بيدال إلى أن الطابع العربي الرومانسي للزجل دليل على امتزاج الثقافتين، وقال: «... والزجل عربي بلغته، وإن كانت هذه اللغة سوقية حوشية كثيرة الأخطاء، عربي بالتزامه قافية واحدة تراعى في أبيات الزجل الواحد كلها، وعربي كذلك بهذين الموضوعين اللذين يدور حولهما الكلام في كل مقطوعة: وهما الحب، أو وصف مغامرة عشقية وقعت للشاعر، والتمدح في شخصية يرجى نداها. ولكنه - على رغم ذلك - لا يبدو عربيًّا في نظمه على طريقة الفقرات (الأبيات، والبيت قفل وأغصان)، وهي طريقة غربية تغاير ما جرت عليه القصيدة العربية من الأبيات ذات البحر الواحد والقافية الواحدة؛ وكذلك لا يبدو عربيًّا في استعماله «الخرجة» في نهاية كل فقرة، وفي بعض الموضوعات التي يطرقها مثل الألْبَادَا la albada - أي الفَجْرِيّات، وهي مقطعات شعرية عرفها اللانين باسم ألباتا albata تقال في افتراق الأحبة عند طلوع الفجر، وهو موضوع سينتقل بعد ذلك إلى الشعر الأوروبي - وفي خلوّه من الموضوعات التي تميز الشعر العربي من غيره، كوصف الرحلات في القفار المجهورة، وصفة حياة البداوة والتنقل والتحدث عن المواقع التي غادرتها القبيلة إلى غيرها، والكلام عن الجمال وما إلى ذلك.

ومن المحقق - أخيرًا - أن الزجل إسباني، لأنه يتحدث عن أعياد ومواسم لا توجد إلا في التقويم اللاتيني، ولاستعماله ألفاظًا وعبارات من عجمية الأندلس مختلطة بلغته العربية الدارجة. هذا والأزجال - إلى جانب إهمالها للموضوعات الأدبية العربية - تبدو لنا حافلة بصورة الحياة اليومية لمسلمي الأندلس، وفيها ذكر كثيرٍ من عادات المستعربين وتقاليدهم»[٢٦٧].

ف ٥٠ - أوائل الزجالين

إذا ذكرنا الطابع الشعبي الدارج لهذا الفن الشعري، لم نستغرب من أصحاب مجموعة النظم والنثر - وهم متعصبون للفصحى وآدابها - أن يأنفوا من أن يوردوا في كتبهم نماذج منه. ولكن خُلْيان ريبيرا تمكن بفضل أبحاثه من العثور على ثروة حافلة من الأزجال وأصحابها.

فمن أوائل الذين نظموا الأزجال سعيد بن عبد ربه (توفي سنة ٣٤١هـ/٩٥٣م) ابن عم صاحب «العقد»[٣٦٨]، وكان معنيًّا بكتابات الإغريق وعلوم الأوائل والفلسفة، وكان صعب العشرة يتكلم لهجة دارجة خشنة؛ واجتهد في تجويد الأزجال أبو يوسف هارون الرمادي شاعر المنصور، وكان يسمى أبا جنيس (El = Ceniciento وهي الأصل الدارج الإسباني الذي أخذ عنه لفظ الرمادي)[٣٦٩]، وكان يُرمى بالزندقة؛ لكثرة اتصاله بالنصارى (توفي سنة ٤١٢هـ/١٠٢٢م)، (ف ١٥)، وكان «أول من أكثر من التضمين في المراكز، يضمِّن كل موقف يقف عليه في المركز خاصة، فاستمر على ذلك شعراء عصره» كما يقول ابن بسام وعبادة بن ماء السماء(توفي ٤١٥ هـ/١٠٢٥م أو٤١٨ هـ/ ١٠٢٨ م) الّذي يقول عن ابن بسام: إنه أحدث التضفير، وذلك أنه اعتمد مواضع الوقف في الأغصان فيضمنها، كما اعتمد الرمادي مواضع الوقف في المركز»[٣٧٠].

وكان أبو عثمان بن سعيد المعروف بالبلينة (أي الحوت = bellena) يصنع أزجالاً يقلد بها «المواليا»، وهو طراز من الشعر الشعبي عند المشارقة. ونظم ابن هانئ (انظر: ف ١٢) قصائد ذات قوافٍ مضفرة من طراز يختلف عن طراز الزجل والموشحة.

وأقبل على الموشحة شعراء كثيرون ممن أجادوا نظم الشعر الفصيح على طريقة القدماء، منهم أبو بكر بن اللبّانة الداني الذي رثى الرشيد بن المعتمد

بموشحة، وأبو بكر محمد بن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة إذ كانت له موشحات ذاعت على ألسن أهل الأندلس، وأبو عبد الله محمد بن عُبادة القزاز(*) الذي تغنى بمحامد بني صمادح أصحاب المرية في موشحات كثيرة[٢٧١].

ومنهم كذلك الأعمى التطيلي - أبو جعفر بن هريرة المتوفى سنة ٥٢٤هـ/١١٤٠م - وكان أديبًا فذًا غلب أبا بكر بن بقي وأبا بكر الأبيض[٢٧١] ونفرًا آخر من الوشّاحين في مساجلة في التوشيح، وذلك عندما قال موشحته:

ضـــاحكٌ عـــن جمـــانْ ســـافرٌ عـــن بـــدر
ضـــاق عـــنه الـــزمانْ وحـــواه صـــدري

فخرق كل منهم موشحته[٢٧٣]. وأبو القاسم الحضرمي الذي كان يأخذ بيد التطيلي؛ حتى لقب «بعصا الأعمى»، وكان شاعرًا وأديبًا بارعًا؛ وابن بقى، وكان ماجنًا مستهترًا وشاعرًا من طبقة عالية، وكانت في شعره عذوبة أذاعت ذكره، وقد رمى المرابطين بالجهالة؛ لأنه عاش في عصرهم فقيرًا[٢٧٤].

وقد نظم أبو بكر بن زهر الطبيب أزجالاً وموشحات بلغت من الكمال مبلغًا جعل الناس يروونها كنماذج لهذين الفنين[٢٧٥].

بيد أننا لا نجد بين أيدينا من هذه الأزجال والموشحات إلا أطرافًا قليلة وردت متناثرة في الكتب، فيما خلا «ديوان ابن قزمان» الذي وصلنا كاملاً على وجه التقريب، وهو لهذا يعطينا أكمل فكرة عما كان عليه فن الزجل.

(*) هكذا ورد الاسم في «أزهار الرياض» للمقري (طبعة القاهرة، جـ٢، ص ٢٥٢).

openkandi.com

ف ٥١ - ابن قزمان وديوانه[٢٧٦]

ينتسب أبو بكر محمد بن عبد الملك بن قزمان الأصغر إلى بيت بني قزمان، وكان من بيوت قرطبة العريقة. ولد في قرطبه بعد سنة ١٠٦٨/٤٦٠ وتوفي سنة ٥٥٤ /١١٦٠، وينبغي ألا نخلط بينه وبين عمه وشبيهه في الاسم وزير المتوكل صاحب بطليوس، وكان شاعرًا أيضًا، وقد توفي سنة ١١١٤/٥٠٧ كما بيّن الأستاذ ليفي بروفنسال، وقد مدح ابن رشد الحفيد في آخر حياته.

وقد قال ابن قزمان في مقدمة ديوانه: إنه وُجد في الأندلس ضربان من الزجل جنبًا إلى جنب: أولهما : شعبي خالص جافٍ غليظ يستعمل الزجالون فيه اللغة الدارجة وعجمية أهل الأندلس el romance، وكان يوافق أذواق العوام؛ وثانيهما : مصقول مهذب erudita مصطنع متكلف يستعمل الناس فيه حركات الإعراب التي لا تجري بها ألسنتهم في دارج الحديث. ولم يبقَ من النوع الأول شيء[٢٧٧]؛ لأن مصنفي كتب الأدب ازدروه وضربوا عنه صفحًا؛ وأما الثاني فلدينا منه أطراف، ولكنها تخلو من الجاذبية وسهولة الطبع التي يمتاز بها النوع الأول.

ويقول ريبيرا - ونحن نتابعه هنا فيما نقول عن الزجل -: إنَّ ابن قزمان درس أزجال جميع من تقدموه، ثم شق لنفسه طريقًا جمع بين الفريقين اللذين ذكرناهما، وعرف كيف يحتفظ بأحسن خصائصهما، فرأى أنه من فساد الذوق والتكلف أن تستعمل حركات الإعراب في شعر يراد أن يُتغنى به جماعةً في جمهور من الناس، ومن ثمَّ فلا مفر من استعمال لغة الكلام الدارجة ؛ حتى يَقْرب من أفهام الناس كافة.

وهو يريد «بلغة الكلام» اللهجة العامية الدارجة التي تشوبها كلمات وعبارات من عجمية أهل الأندلس، على أن يكون ذلك في أسلوب متخير رشيق. وهو يرى أنَّ الزجَّال ينبغي عليه أن يختار من الموضوعات أحفلها بالفكاهة وأخفها، وينبغي أن

يكون ما يختاره جذّابًا رشيقًا فيّاضًا بالحيوية مما يثير اهتمام الجمهور، وينبغي ألا تكون الموضوعات معقدة أو بلاغية متكلفة، وإنما سهلة مما تجري به ألسنة عابر السبيل ومما يستعمله الناس في حلقات الموسيقى الشعبية الصاخبة ومجالات اللهو والتسلية، بل ينبغي أن تكون الموضوعات «حارة محرقة، حادة منضجة، من ألفاظ العامة ولغات الدّاصة» كما يقول ابن سناء الملك[٢٧٨].

أما قالب الأغاني وتركيبها فتستعمل له كل بحور الشعر الفصيح القائم على أسس العروض، ولا بد أن تصاغ القطعة على نحو سلس غير متكلف ؛ حتى تجيء سهلة طبيعية صادرة دون تعمُّلٍ ولا جهد[٢٧٩].

سار ابن قزمان في هذا الاتجاه الوسط الذي انتهجه قبل أستاذه أخطل بن نمارة، «ولكن أزجال ابن قزمان حفلت بذكر الرذائل الملازمة لروح العوام، وخلت من أي تحفُّظ أو احتشام، ومن ثمَّ فإننا نجد فيها فُحْشًا مخجلاً وألفاظًا مبتذلة مما كانت تجري به ألسنة أهل الأحياء المتطرفة من قرطبة»[٢٨٠].

يضم ديوان ابن قزمان تسعة وأربعين ومائة زجل، كل زجل منها يتكون - عدا الخرجة - من أبيات متساوية في عدد الأغصان، وهو يلتزم هذا النظام في كل زجل.

«وكل من الأغصان يتكون من أربعة أشطار إلى اثني عشر شطرًا، ففيها رباعيات وخماسيات وسداسيات وسباعيات وثمانيات وتساعيات وعشريات وآحاد. عشريات». وأبسط أزجاله - وهي الرباعية - تبدأ بالقُفل أو الخرجة، وهي شطر من بيت ذي قافية تُلتزم في كل خرجات الزجل بعد ذلك، ونحن نرمز إليها هكذا: ا ا، ثم يلي ذلكَ ثلاثة أغصان على قافية واحدة نرمز لها بالحروف: ب ب ب، ثم تختم ببيت على قافية الخرجة الأولى «ا»[٢٨١]، (انظر ص ١٤٤).

وعلى رغم هذا القالب الفني المبتكر، الذي يبدو من الأزجال بوضوح أنه قائم

على أساس مقرر موضوع أو مصقول cortesano، إلا أنَّ الطابع الشعبي لها يدل على أنها إنما نظمت ليتغنى بها المنشدون في الأسواق، أو المتسولون الجائلون في الطرقات، أو أصحاب المجون أو «النسوان والسكرى والسكران»، كما يقول ابن سناء الملك. ولا تصاغ الأزجال ليتغنى بها الإنسان منفردًا، «وإنما ينشدها الناس جماعةً في الطرقات بصوت جهير وسط جمهور يتجمع أفراده حول المنشد، ثم ينشدون «الخرجة» جماعةً عقب كل فقرة يلقيها المنشد وحده، تصاحب ذلك كله آلات الموسيقى كالعود والناي والطنبور والدف والصاجات، وربما تخللها الرقصُ».

ولم يكن من الممكن والحالة هذه أن تصاغ هذه الأغاني في قوالب الشعر الفصيح فحسب، «والواقع أن لغتها ليست لغة الشعر المعروفة التي كان المؤدِّبون يلقنونها للدارسين، بل الدارجة التي كانت جارية على الألسن في قرطبه، بما فيها من دعابات سوقية وعبارات مبتذلة وألفاظ مواخير وعبارات الطلاب التي يستعملونها في مباذلهم وألفاظ الصبيان إذ يلعبون في الطريق، وفيها الكثير من العبارات الاصطلاحية التي يتعارف عليها أهل كل حرفة، ولا تخلو كذلك من اللغو الفارغ الذي تحفل به أحاديث البيوت»[٢٨٣].

ومن هنا كثر استعمال العجمية الأندلسية في الأزجال، فتجد فيها ألفاظ مثل: يناير، مايو، بريينه verbana (نبات تُغلى أوراقه وأزهاره وتُشْرب)؛ بل نجد عبارات عجمية كاملة مثل: توتوبن toto ben، وكريو creo (اعتقد)، ومخشل دشول mejille de sol (خدٌّ كأنه الشَّمس) بل هناك أشطار نصفها عربي ونصفها عجمي، مثل الفقرة الثانية من الزجل رقم ١٠ من الديوان:

يا مُطَرْبَنْ شلبَاطُ كُنْ حزين تن يناطُ كرًا اليوم وشَطَّاطُ

لم تذق فيه غير لُقَيْمَة(*)

أما أوزان هذه الأغاني، فعلى الرغم من أنها مشتقة من تفاعيل العروض الشعري التقليدي، إلا أنها لا تلتزم قواعد النحو، إذ إن ألفاظها من الدارج الذي لا يعرف حركات الإعراب. بل إن اللفظ بقوافي الأزجال لا يخضع لأشراط التقفية المعروف في الشعر الفصيح، هذا على الرغم من أن ابن قزمان كان يستعمل الحروف الجامدة consonants دائمًا بطريقة أكمل مما نجده في الأشعار الأوروبية القديمة».

ويتحرى ابن قزمان أن تكون الخرجة مما يستلفت انتباه السامعين ويجتذب

(*) مطر: madre: أم. بن: vani: تعالى. شلباط: salvado: أنجديني (؟). تن: tun: tanto: حينًا، ومعنى تُنْ .. تُنْ على هذا يكون: حينًا .. وحينًا آخر. يناط: قرأها ريبيرا بنَاطو penato أي متألم، ويقترح الدكتور الإهواني أن تقرأ: بنَاطُ، وهي لفظة مغربية معناها الدقيق غير معروف، ولكن يفهم من مثل مغربي أورده الأستاذ محمد ابن شنب أن معناها الشدة، والمثل هو: جيت بين شناطي وبناطي، وترجمه ابن شنب هكذا:

Je susis tombé entre chenaty et ynaty: coupant lentment mal.

Cf: Mohammed ben Cheneb: Proverbes arabes de l' Algérie et de Maghreb (Paris, 1907), nu. 2341 Sp. 133.

المعنى:

يا أمَّاه تعالي أنجديني
أنا حينًا حزين وحينًا متألم
ترى اليوم وطوله
لم تذق فيه غير لقمة.

وهذه من قراءة كولان وبروفنسال، وهي أصحُّ من قراءة ريبيرا التي تابعه فيها نيكل وأثبتها المؤلف مع الترجمة الشعرية الإسبانية الخاطئة التي قام بها ريبيرا.

Cf: Ribera, Dis. y, Op. l, p. 35.

أسماع الجمهور ؛ حتى يصغوا إلى الزجل، ومن أمثلة ذلك:

أيامــا مــلاح، شــرطه الخلاعــة حــرام الــذي يعمــل صــناعة(*)

وقوله في خرجة زجل آخر:

نعطــي ثــيابي ونــنفق مــالي فَالشــراب الــبالي(*)

ومن الأزجال ما يقصد منه إلى طلب المال والطعام أو الإحسان، ومنها السياسي، وأزجال المديح؛ بل منها ما يدور حول موضوعات حزينة.

ويسمي ابن قزمان الجزء الأول من كل زجل: «التغزل»، وهو مطلع الزجل الذي يحوي أول موضوعاته، «ولا بد أن يكون في أمر عام أو تقليدي، وينبغي أن يصاغ في قالب سهل خفيف فَكِه، ويغلب أن يكون موضوعًا جنسيًا أو خمريًا أو سُخرًا من المجتمع، لا هو بجارح ولا مثير، وإنما مبتذل لا تَحَفُّظ فيه».

(*) خرجة الزجل رقم ٢٣ في الديوان، وقد قاله في مديحه رجل يسمى أبا جعفر ويلقبه بالوزير، ويشكو إليه من عجزه عن دفع كراء داره.
أيامًا: أيام، وإيراد الكلمات في حالة النصب على هذه الصورة كان أمرًا عاديًا في لهجة مسلمي الأندلس، الخلاعة: اللذة والسرور. صناعة: عمل.
ومعنى الخرجة:
ما أملح هذه الأيام .. إن شرط اكتمال اللذة والسرور هو التبطل، وحرام معها أن يعمل الإنسان عملاً ما.

Cf: A. R. Nykl: El Cancionero de Aben Cuzman. pp. 58-60, 373-374.

(*) خرجة الزجل رقم ٣ في الديوان، وهو مرقوم خطأ تحت رقم ٢٥. وقد قاله في مديح وزير لم يذكر اسمه، يغلب علي الظن أنه ابن حمدين.

Cf: A. R. Nykl, op. cit. pp. 372-373.

فالشراب: في الشراب. البالي: المعتق.

ثم إننا نجد ابن قزمان يعالج الموضوعات الغرامية بطريق لا نكاد نجد فيها أي طابع عربي صرف: فلا ذكر للجَمَل ولا للتجوال في القفار، ولا أثر للحياة البدوية الظاعنة، ولا نجده يذكر الديار التي هجرها أهلها[٢٨٣]، أو يشير إلى موضوع من موضوعات تاريخ العرب.

بل إننا لا نجده يذكر الإسلام إلا في مواضع قليلة، ويكون ذلك عادة عند ذكره للفقهاء والأتقياء، وهو ينال منهم في غير حياء ويركبهم بألوان السخرية؛ فإذا ذكر شهر رمضان والصيام سخر من الصائمين وأطرى المفطرين والمقبلين على الخمر واللواط. وهو لا يذكر الدين إلا في ثلاثة مواضع أو أربعة في بعض أزجال المديح من ديوانه، ويلحظ القارئ بوضوح أن ذلك التوقير للدين صدر عن ابن قزمان وهو في معرض السخط على نصارى الشمال.

أما القسم الثاني من الزجل وهو المسمى «المديح» فيتغنى فيه ابن قزمان بفضائل من يهدي إليه الزجل، ثم يختم بطلب معروف أو رفد. وفي ديوان ابن قزمان زجل نقله الأستاذ ريبيرا إلى الإسبانية كاملاً، نجد فيه موضوع الشعر المسمى في الشعر الأوروبي بالألبادا أو المقطعات الفَجْريَّة، وقد سبق به ابن قزمان أقدم ما في أيدينا من الشعر البروفنسي من هذا النوع بخمسين سنة، ونحن نجد فيه ذكر الرقيب ولقاء الحبيبين في ظلام الليل وخوفهما من طلوع الفجر وصراع الهوى في قلبيهما قبل الفراق؛ ولا بد أن هذا الموضوع كان قد قدم به العهد واضمحل في الأندلس؛ لأن ابن قزمان يسخر منه[٢٨٤].

لولم يورد المؤلف نص هذا الزجل الذي يشير إليه، وهو الزجل رقم ١٤١ من الديوان، وقد رأيت أن آتى ببيتين منه هنا؛ قال ابن قزمان:

تَشْـربْ المليـحَ وتسـقيني   لا رقيـب علينا ولا حـاكم   كـــذا أمـــلحْ(*)

بتـــنا ـفي رِضـــى، قُـــبلْ وعَـــنَقْ

اي تَمُـــور، أوَشْ تـــريد تقلـــقْ

وَفِّـــر الفـــرامة لمـــن يعشـــقْ

مـــن صـــبر لشـــدتي رالـيـــنى

قَـــلْ مـــا علـــيه أنـــا عـــازمْ

فـــــلا يفـــــلح(*)

الصِّـــبا يُشـــاكل مـــا يَفْمـــلْ

داعُ داعُ يجـــــي ويدُلّـــــل

قـــد تَـــرَ إيـــت ولم تَـــرا قَـــط أجمـــلْ

(*) المليح: مليحة. وهذه الأشطار الثلاثة هي خرجة ذلك الزجل، وقد جعلتها ـفي سطر واحد كما وردت ـفي الديوان؛ أما بقية الزجل فقد جعلتُ كل شطر ـفي سطر.

(*) عنق: عناق. أي تمور: أين تمر: أين تذهب. أوش: أو لماذا. تريد تقلق: تقلق. وفّر الغرامة: دع فرصة الغرام، ويقترح الإهواني قراءتها: وقر الغرامة، أي ثقل العبء على العاشق. رالبني: رأي ليني ورقتي. قل ما عليه أن عازم: ما أقل ما أستطيع حزم رأيي عليه. فلا يفلح: ولا يفلح مع ذلك.

المعنى:

لقد بتنا ـفي رضا، ما بين اعتناق وتقبيل

أين تريد أن تذهب؟ .. أو ماذا يقلقك ..؟

دع تكاليف الغرام لعاشقك.

إن من يصبر لعنفي يتبين بعد ذلك كم أنا رقيق

وما أقل ما أستطيع أن أحزم أمري على شيء ..

ولهذا لا يفلح لي شيء ..

مَـــن صَـــدْرُ لِطَـــمٌ يشـــتهيني

ينـــبَهَر علـــيه نهـــدا قـــايمْ

ويـــــــتوقّح[*][٢٨٥]

ف ٥٢ - مدرسة ابن قزمان

إن مجرد ذكر معاصريه ومن أتوا بعده ممن انصرف إلى نظم الأزجال أمر يطول، ونكتفي هنا بذكر أبي عبد الله بن الحاج المعروف بمَدْغَلّيس[٢٨٦]، الذي كان يعني بالأسلوب أكثر مما كان يعني به ابن قزمان، وأبو المتوكل، والهيثم بن أحمد بن أبي غالب الإشبيلي الذي كان «يملي على أخذ الطلبة شعرًا، وعلى ثانٍ موشحة، وعلى ثالث زجلاً، كل ذلك ارتجالاً»[٢٨٧]، وأمُّ الكرامَ بنت المعتصم بن صُمادح صاحب المرية، وكانت تبعث إلى محبوبها الأصمعي ببطائق منظومة أزجالاً[٢٨٨]، وإبراهيم بن سهل اليهودي، وابن المرعزي النصراني، والزاهد المتصوف أحمد بن وكيل،

(*) الصبا يشاكل ما يعمل: ما يعمله يتفق مع صباه. داع داع: دعه دعه. يدلل: يتدلل. قد ترأيت: قد ظهرت. مَن صدرُ: تكملة للشطرة السابقة: لم تر قط أجمل من صدر يشهيني لضمه. ويتوقح: يتجرأ، يضطر إلى الجرأة.

المعنى:

إن ما يعمله (محبوبي) يتفق مع صباه ..

فدعه دعه يمضي ويتدلل ..

ها أنت قد ظهرت، ولم نر قط أجمل منك ..

لشدة ما أشتهي ضمه لصدره ..

إنَّ عليه نهدًا قائمًا ينبهر منه الإنسان ..

ويتوقح ..

Cf: Ribers, op. cit. I. pp. 86-92.

Nyki, op. cit. pp. 315-316, 436-438.

obeikandi.com

وأبو الحسن الششتري الوادي آشي، ومحيي الدين بن عربي المرسي، والفيلسوف الشاعر الموسيقي أبو الصلت بن أمية الداني، وابن زُهر الطبيب، وابن باجة، ونزهون بنت القلاعي الغرناطية.

قال صاحب «المُغرب» في حقها: «من أهل المائة الخامسة، ذكرها الحجاري في المسهب ووصفها بخفة الروح والانطباع الزائد والحلاوة، وجفظ الشعر والمعرفة بضرب الأمثال، مع جمال فائق وحسن رائق، وكان الوزير أبو بكر بن سعيد أولع الناس بمحاضرتها ومذاكرتها ومراسلتها»، وكانت تلميذة لأبي بكر المخزومي الشاعر الضرير، وكان صاحب سخر لاذع وصديقًا لابن قزمان.

وقد انصرف الناس إلى صناعة الزجل في كافة نواحي الأندلس، ففي أرجون (سرقسطة) ظهر أبو بكر أحمد بن مالك بن سيد اللخمي الشابي[٢٨٩]، وفي بلنسية ابنُ حريق[٢٩٠] و ابنُ محمد الشاطبي[٢٩١] تابع ابن مردانيش، وفي مرسية أبو عبد الله محمد بن ناجية اللورقي[٢٩٢]، وفي قرطبه محمد بن خيرة[٢٩٣] كاتب المرابطين. وكثر الزجالون في إشبيلية خاصة؛ حيث ظهر شعراء برعوا في نظم الزجل البديع المبتكر، من أمثال أبي الحسن علي بن جُحْدُر[٢٩٤]، وأبي بكر الصابوني[٢٩٥]، وأحمد بن جَنُّون[٢٩٦]، وابن أبي حبيب الجزري[٢٩٧] الذي صلبه الموحدون لزندقته، وأبي بكر بن صارم[٢٩٨] الذي رُمي بالزندقة هو أيضًا وأوذي ثم مات محترقًا في حريق شب في بيته، وأحمد المقريني المعروف بالكسّاد[٢٩٩]، وعبد الغفار بن دشلون[٣٠٠]، وغيرهم كثيرون يصدق فيهم قول الشقندي: «وأما ما فيها (أي في الأندلس) من الشعراء والوشّاحين والزجّالين فما لو قسموا على بر العداوة ضاق بهم، والكل ينالون من خير رؤسائهم ورفدهم»[٣٠١].

وحتى في مملكة غرناطة أُغرم الناس بهذا الفن الشعري، وأقبل عليه من أهل العلم والمعرفة نفر مثل النحوي أبي حيَّان بن حيَّان، وابن عبد العظيم الوادي آشي،

وابن زَمْرَك الذي اشتهر «بصبحياته» albaradas[٣٠٢]، وذي الوزارتين ابن الخطيب الشاعر الناثر المعروف، بل إنَّ ابن خلدون يذكر أنه عندما زار غرناطة وجد «الزجل» الفن الشعري السائد هناك[٣٠٣]. وكان الموريسكيون ينظمونه أيضًا.

وفي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين توجه من أهل الأندلس نفرٌ من الفقهاء والمتصوفين والأطباء وأهل الأدب إلى المشرق، وكان لهم أثر عظيم هناك. وعن طريق بعض هؤلاء انتقل الزجل إلى المشرق، وكان أول من علّم أهله صناعته أبو مروان بن زهر، الذي مارس الطب في بغداد، وأبو علي الشلوبيني النحوي، وابن وكيل الزاهد الذي عرف بابن الأقليشي، ومحيي الدين بن عربي، وعبد المنعم بن عرم - وكان كحّالاً وفيلسوفًا وأصله من جيان، وأصبح فيما بعد شاعر صلاح الدين الأيوبي - وابن سعيد الغرناطي، الذي اجتمع في المشرق بشعراء أندلسيِّين هاجروا من بلادهم وانصرفوا إلى صناعة الزجل في مهاجرهم، ومن أولئك أبو الحجاج يوسف بن عقبة[٣٠٤].

وسنرى فيما بعد (ف ١٦٦) أثر الزجل في الأشعار الأوربية.